الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem
www.abulazayem.com

Version 3 / November, 2024

دروس تزكية النفس

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

تزكية النفوس

معرفة النفس

إذا عرفت نفسك كان بالحق أنسك، ومن جهل نفسه أنس بما تأنس به الأنعام، واستوحش من الملك العلام، فابتهج بالدنى والوبى، وحجب عن النور المضى، ولا عجب، فإن الخفاش لا يرى ضوء الشمس مع سطوع أنوارها، وتلألؤ أضوائها، ومن استضاء بنور الحق صغرت عنده أرقى المقامات.

النفس النورانية والنفس الشريرة

النفوس قسمان: نفس نورانية خلقت من الجمال، ونفس شريرة لا تؤثر فيها الذكرى والموعظة، ولو كانت فى ابن نبى أو رسول أو صديق، والمثال ابن سيدنا نوح عليه السلام، ولو تربت النفس الشريرة مع الملائكة لم تؤثر فيها التربية فلابد أن تعود إلى شرها، ومثال ذلك تربية موسى السامرى مع سيدنا جبريل عليه السلام، والنفس النورانية لا يؤثر فيها الشر ولو تربت مع إبليس، ومثال ذلك تربية سيدنا موسى مع فرعون.

تفاوت النفوس

بين جواهر النفوس تفاوت، يقف العقل دون فهم نسبه، فمن النفوس ما جوهرها من أدنى جواهر النفوس الإبليسية الشريرة، ونفوس أهل الإلحاد والجحود والشرك بالله تعالى، وهؤلاء لا تزيدهم الحجة إلا بعداً ولا البرهان إلا جحداً ولا الآيات إلا إنكاراً. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ البقرة ١٤٥، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١٣٢، وأهل هذه النفوس لا تخفى علامتهم ولو كانوا مسلمين ظاهراً، وإنما هى نفوس خفيت على عيون الرؤوس وما احتوت

عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ البقرة ١٤.

أما النفوس التى صاغها الله من الجواهر الصافية فإن منها ما هو مجذوب إلى حضرة القدس ولو بغير آية ولا دليل أو برهان، كنفوس الفتية أهل الكهف، أو بدليل كنفوس سحرة فرعون مع موسى عليه السلام، أو بالوجد الصادق كنفوس أفراد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أو أفراد التابعين كأويس القرنى وابن المسيب وابن جبير وغيرهم كحبيب العجمى والبلخى ورابعة العدوية، ممن صال عليه الحق صولة ملأت قلوبهم حُباً وبصائرهم مشاهدة لجماله العلى.

جوهر النفس ناولوه الطهورا ... أشهدوه فى الذكر بالصفو نورا
واجهته شمس الحقيقة حتى ... بالتدانى قد شاهد المذكورا
غاب عنه فى ذكره فتدلى ... واجه الوجه شاهد المقدورا
لم يقف لحظة ونور المجالى ... مشهد الفرد ظاهراً لا ستورا
كيف حجبى بسر قدرٍ ووجهى ... قد رآه مقدراً وقديرا
دون مرأى الجميل آى وكون ... بل ﴿وكن﴾ دونه فزدنى حبورا
لى مقام حال اقترابى وصفوى ... يجتلى الوصف ظاهراً منظورا
باجتلاه أفنى به عن شهودى ... أبقى فيه أراه رباً غفورا
عدت للبدء كلمة فى ابتدائى ... أظهرتنى رمزاً يشير ظهورا
مظهر للجمال كنز على ... صورة الأصل من أتانا بشيرا
بين صفوى وبين قربى وأنسى ... مثل سور يحيط ثم بحورا
سورى الشرع والبحور التجلى ... من رآه بالسر يشهد نورا
سيرة منهج الحبيب التهامى ... سره ظاهر يرى مغمورا
صل ربى على الحبيب المُرجى ... نعط منها الصفا ونعط السرورا

لم يسخر الله الملك والملكوت للإنسان؟

إن النفس الإنسانية حيرت العالم أجمع، قال العربى:

والـــذى حـــارت الـبريـــة فـيـه حـيـــوان مـــستحـــدث مـن جمـــاد

ولولا ذلك، ما سخر الله للإنسان مُلكه وملكوته، ولا أكرمه بأن جعله فى أحسن تقويم، ولا تفضل عليه بسجود ملائكته، ولا أحسن إليه بأن وعده بالمُلك الكبير، ولا اعتنى به فأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، ولا رفعه فوق العالم أجمع، بأن جعل من بنى الإنسان من يكلمه كفاحاً، وجعل منهم من يرتقى حتى يُزج به فى نور الملكوت فيرى ربه مواجهة. كل تلك العواطف فضلاً عن أنه خلقه بيديه، فجمع فيه العالمين وهو الجرم الصغير والهيكل الضئيل، فهو وإن صغرت حقيقة مبناه، فقد عظمت مكانة معناه، وهو فوق عالين قدراً ودون الشياطين سفلاً، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس ٧-٩، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الأعلى ١٤، والإفلاح فى اللغة الفوز بنيل القصود كلها، ومن القصود تفريد الله تعالى بالقصد دون غيره، حتى يفر من الفردوس إلى مقصده جل جلاله، وقد سبق لى أنى قررت أن أساس طريقى الحب والإيثار والاستقامة، وبينت لك أن البيت إذا بنى على غير أساس لا يقوى على زعازع الرياح، ومعلوم أن طريق الله احتوشته الشياطين، فلا يسلك سلوك الواصلين إلى الله إلا من زكت نفسه، قال على عليه السلام: (الهوى أخو العمى)، يعنى أن الأعمى لا يمكنه أن يهتدى إلى السبيل الموصلة إلى المقصد، وكذلك إذا حجب الهوى القلب عن الحق أعماه عن مناهج القرب وموارد الحب، ولا يمكن للسالك أن يحصل تلك الأسس الثلاث إلا إذا زكت نفسه، والعقل وإن كمل لا تستبين له معالم طريق الله إلا بالمرشد، ولو أن العقل يمكنه أن يصل إلى الله بالبحث لكانت بعثة الرسل عبثاً، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الإيمان كتبه الله وزينه فى القلوب

وهو الذى خلق الإنسان من أركان الوجود الأربعة التى هى الماء والتراب والنار والهواء، وأنت تعلم ما بينها من التضاد والعناد، فإذا وكل الإنسان إلى نفسه كان شراً من الشيطان وأضر من السبع الكاسر ما لم يزك نفسه. والحقيقة الإنسانية من حيث هى تستحق الدرك الأسفل من النار، إن لم يمنحها الله تعالى مزيداً عليها من فضله، يجذبها إلى مناهج القرب منه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ المجادلة ٢٢، وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحجرات ٧-٨، فكتابة الإيمان فى القلوب تغير القلوب، وقلب لم يكتب الله فيه الإيمان جاحد لاحد، وحب القلب للإيمان يغير القلب، وقلب لم يقدر الله له حب الإيمان فهو كافر نافر، وتزيين الإيمان فى القلب يغير القلب، وقلب لم يزين الله تعالى فيه الإيمان فهو كافر نافر، والكتابة والتزيين والتحبيب فعل الله تعالى، وهى حقيقة زائدة على الحقيقة الإنسانية، ولولاها لكان الإنسان فى أسفل سافلين للنأى والبعد عن الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التين ٤-٦.

وتقدم لك أن الإيمان إنما كتبه الله وزينه وحببه فى القلوب، ولولا كتابة الله وتزيينه وتحبيبه، لما كان على وجه الأرض مؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ الحجرات ٧، فكأن الله تعالى كرَّه الكفر والفسوق والعصيان إلى المؤمنين، وقبل إيمانهم كانوا يحبون الكفر والفسوق والعصيان، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ﴾ دليل على أن تلك المعانى كانت محبوبة لهم، لولا عناية الله تعالى بهم وولايته جل جلاله لهم، وكذلك من لم يزك الله تعالى نفسه فلا زكت، لأن أكمل نعمة علينا هو نعمته سبحانه علينا بحبيبه ومصطفاه ﷺ، والسعيد حقاً من شكر نعمة الله عليه برسول الله ﷺ، ومن لم يشكر نعمة الله عليه به، نطالبه أن يتذكر نفسه قبل بعثته ﷺ، فيرى أنه كان عابداً لحجر يصنعه بنفسه، وكان أرذل من أسفل الحيوانات وأضل من أفسد الشياطين. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ

أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿ آل عمران ١٠٣.

فى نفس تدعو وتوبى أمان ... فى روح قوامها الإيمان
فى حس شباك كل الخطايا ... فى جسم للموبقات رهان
فى عقل يقوى على الحسن لكن ... خبث طبعى فيه الهوى والهوان
يكتب الله فى القلوب هداها ... أيدته الآيات والبرهان
زينته آى من الله تتلى ... يكتب الصدق فيه وهو الحنان
إن يتب ربنا على فإنى ... أتهنى، يعطى الرضا الديان
إن يتب خالقى أتوب فأحظى ... بالأمانى ينالنى الرضوان
من أنا لو أتوب فى كل وقت ... تب إلهى على يا منان
كل آن أعصى وأنسى فويحى ... إن دعانى إلى الهوى الشيطان
يا إلهى عبد ظلوم ينادى ... قابل التوب توبتى لى أمان
يا سرورى بالتوب عنى قبولى ... توب ربى على لى غفران
طهرنى من الذنوب وبدل ... كل سوئى يعمنى الإحسان
يسرن لى المتاب حصن جميعى ... أيدنى يصح لى الإيقان
جملنى يا سيدى بالمعانى ... أظهرن لى الأسرار يا حنان
حال حلى وفى ارتحالى أنلنى ... كل خير يصح لى التبيان
هب لكل الأولاد واسع خير ... والأيادى ينالها الإخوان

أبدال سيدنا رسول الله ﷺ هم ورثته

ونعمة الله علينا التى يأمرنا أن نذكرها هى رسول الله ﷺ، ولما كان الله حياً قيوماً، وكان رسول الله ﷺ خاتم الرسل، تفضل الله تعالى علينا فلم يفقدنا رسول الله ﷺ بل أوجده فينا إلى يوم القيامة، ونعوذ بالله من زمان نفقد فيه رسول الله ﷺ، فهو وإن رفعه الله إلى الرفيق الأعلى فقد أقام له أبدالاً هم ورثته، يجددون ما اندرس من سنته ويعيدون ما خفى من أسراره، وقد وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح، وجعلهم وإن كانوا فى آخر الزمان مع رسول الله ﷺ وهم فى آخر الزمان، وذكرهم على بن أبى طالب عليه السلام فى خطبة لكميل.

قال كميل بن زياد: أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن طالب عليه السلام، فأخرجنى إلى الجبان، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال:

(يا كميل: إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها. فاحفظ عنى ما أقول لك.

الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل: العلم خير من المال، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكوا على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل: العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل: هلك خُزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة. إن ها هنا لعلماً جماً (وأشار إلى صدره) لو أصبت له حملة، بلى أصبت لقناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له فى أحنائه، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة. ألا لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً

بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين فى شئ، أقرب شئ شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة. إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته. وكم ذا؟ وأين أولئك، أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها فى قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم. انصرف إذ شئت)

وهم أئمة الهدى، الدالون على الحق بالحق، الذين يعيدون الأمر إلى ماضيه، وبهم تزكو النفوس. كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة ١٥١.

فتلك الأنواع التى أظهرها الله برسوله ابتداءً، يظهرها بورثته ﷺ ختماً واتباعاً، فمن أراد أن يفوز بالسعادتين فليبدأ بالبحث عن المرشد، فإن صحبة المرشد نَفَساً خير من عبادة الف عام، وإليك حكاية:

قال أبو تراب: كنت مع سيدى ومرشدى أبى يزيد البسطامى فى سياحة، فجلسنا على دجلة، وتوجهت إلى البلد لأحضر له قوتاً، فلقيت رجلاً فى الصحراء توسمت فيه الخير، فسلمت وجلست، وتكلمت معه فى سيدى أبى يزيد، فقال: إن ربى يتجلى لى كذا مرة، فقلت له: وجه أبى يزيد خير من أن يتجلى لك ربك الف مرة، فعجب الرجل، فقلت: ليس البيان كالعيان وها هو الرجل فتدارك السعادة قبل فواتها، فأقبلت به وقد أتم سيدى الوضوء من دجلة، وخرج وعلى كتفه فروته مقلوبة، فقلت: ها هو أبو يزيد. فقال: ما آداب زيارته؟ قلت: انظر إلى رجل مع الله تعالى، وانظر إلى نفسك وربك يتجلى لك تسعاً وتسعين مرة، فأقبل على أبى يزيد ووضع يده فى يده ونظر إليه وخر ميتاً، فدهشت، وقلت: ما هذا يا سيدى؟ قال: نظر الرجل إلىَّ بقدره لا بقدرى فشهد من هو معى ومن أنا عنده، فضاق الماعون.

فكانت نظرة من زكت نفسه إلى المرشد نظرة أخفت المرآة وأظهرت الصورة، والشقى من خفيت عنه الصورة وظهرت المرآة. ومن تفضل الله عليه بعارف ربانى وعالم روحانى، وأقام معه على حفظ العهد بالسمع والطاعة، زكت نفسه فحصل أنسه وزال لبسه. وبالله التوفيق.

يجلى لسرى البها إن صح لى حالى ... والوجه فى الذكر حال الصفو آمالى
يخفى البها سدرتى والنور حيطتها ... لولا الوراثة أخفى النور إجمالى
حالى علىٌّ ولكنى أستره ... والحال لو يبد يمحو سور أبدالى
أنواره تخطف الأبصار لو سطعت ... أسراره دك منها شامخ عال
لى وسعة وسعت أحوال من سبقوا ... نور الوراثة من معطٍ ومتعال
لى مشهد دونه الأحوال لو كشفت ... أنواره تمح عنى النأى بالحال
لا يقهر الحال من قد ذاق خمرتنا ... صرفاً بصدق وإخلاص وإقبال
خمر طهور بسور الشرع نشربه ... من غير خلط ولا مزج وإضلال
قد ناولتها يد الوهاب من أزلٍ ... فاقرأ ﴿أَلَسْتُ﴾ ترى أنوار أقوالى
نور الشريعة فى سر الحقيقة فى ... غيب البطون وفيض الفضل متوال
صرفاً تدار على أرواح من طلبوا ... غابوا بها عن سوى الوهاب والوالى
أرواحهم شهدت نور الجلالة فى ... غيب العناية من أهلى وأمثالى
مطلوبهم وجه مولاهم وبغيتهم ... فضل يدوم ورضوان بإقبال
أهل العزائم قد خصوا بسابقة ... حب إلى الله يجذبهم بإجلال
الله خصهمو بالحب من أزل ... والمصطفى قد سقاهم خمره الغالى
أرواحهم شهدت أنوار مبدعهم ... فروا إلى الله فى حل وترحالى
قد نولوا خمرة القرآن صافية ... فضلاً من الله رب العرش متوال
صلوا على من ساقنا الراح صافيةً ... خير النبيين غوثى كل آمالى

التهذيب

حقيقة التهذيب

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس ٧-٩، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الأعلى ١٤، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢.

وقال ﷺ فى حديثه الطويل: (ألا وإن فى الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، ألا وهى القلب ألا وهى القلب) وقال ﷺ: (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون) وقال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك).

التهذيب مجاهدة النفس حتى تتخلى عن الرذائل التى فُطرت عليها والحظوظ الخفية عنها، والأهواء الباعثة لها على تعدى حدود الله تعالى.

وقد شرحت فى كتاب "معارج المقربين"، وكتاب "النور المبين" جملاً فى علم النفس، وألمعت فى كتاب (تذكرة المرشدين) إلى طرق التهذيب والتخلية، فليراجعها طالب القرب من الله تعالى، حتى ينال بغيته التى يبتغيها، ونهاية بغية المؤمنين ما أخبر الله به عنهم بقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفتح ٢٩، فبغية كل مؤمن كامل أن يفوز بفضل الله العظيم ورضوانه الأكبر، وهى حلل الجمال التى يتفضل الله بها على العبد المؤمن بخالص المنة، بعد التخلى من ميول النفس ورعوناتها وحظها وهواها، وبعد توقى شُحها وتطهيرها من لَقَسِهَا.

حكمة التهذيب على يد المرشد

ومن قام بتهذيب النفوس ولم يكن مرشداً كاملاً، أو قام يهذب نفسه بنفسه على غير يد

المرشد، أضعف الحالة الوسط فى التوازن بين القوى الإنسانية، فأخذ بالآلات التى توصل للنفس المعلومات من الأعضاء الظاهرة والقوى الباطنة، ومتى ضعفت تلك القوى والأعضاء، لم توصل إلى النفس المعلومات اليقينية.

مثال ذلك: أنك تلقى دلواً فى الماء ممزقاً، فإذا سقط فى الماء امتلأ وثقل، فإذا انتشلته لم يوصل إليك ماء، ولكنه يصل إليك فارغاً، فكذلك إذا كانت القوى الإنسانية تضعف بالتهذيب على يد غير المرشد، لا تضبط المعانى الحقة ولكنها تضبط المعانى الباطلة، فتوصلها إلى جوهر النفس، وجوهر النفس قابل بفطرته، فإذا رد على الجوارح ما قبل، ضعفت الجوارح عن ردها عليه فيحصل اللبس.

وأكثر السالكين فى طريق الله، يختل التوازن بين قواهم، فيخرجون عن النمط الأوسط، ويقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة ١٤٣، ويقول ﷺ: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى).

وأكثر عُمار البيمارستان (مستشفى المجاذيب) من الذين تهذبوا على يد غير المرشد من الجهلاء أو الضُلال، وكثير من أهل الضلال يستعملون المخدرات فى مجالسهم، ليفسدوا على الناس القوى التى بها إدراك الحكمة العالية، لتكون لهم شهرة بين الناس بأن لهم نفوساً تؤثر.

وكم خُدعت نفوس طاهرة بأهل الجهالة من الأدعياء وأهل الضلالة، من الذين لم يؤمنوا بيوم الحساب، وتنزه طريق الحق عن تلك الأباطيل، لأن هذا لو كان حقاً، لكان أولى به رسول الله ﷺ والصحابة والأئمة الهادون المرشدون بعده.

الفرق بين أهل السلوك والتمكين فى إظهار أحوالهم

وربما اعترض على معترض فقال: إن أئمة الطريق وهداة الأمة لهم من الأحوال ما تسجد له العقول وتخشع له القلوب.

فأجيبهم: إن أحوالهم لم تحصل لهم إلا فى حال سلوكهم، قبل أن يكونوا من أهل التمكين الدالين على طريق الحق، وليسوا عند تلك الأحوال والكرامات بأئمة للمتقين، لفنائهم عنهم وغيبتهم عن حسهم حتى يكملوا، فإذا كملوا صغر فى عينهم كل شئ، من حال ومقام وكرامات، لمواجهتهم لعظمة الحق جل جلاله، قال ﷺ: (من عزه الله صغر فى عينه كل شئ) فكانوا رضى الله عنهم مأواهم القبور والصحارى والغابات، يفرون من الخلق، يأكلون أوراق الأشجار ويشربون ماء العيون، فإذا اجتمع عليهم الخلق أظهروا الجنون ووالله ماهم بمجانين، ولكنهم غاروا على الحكمة العالية والأحوال السامية أن يسمعها غير أهلها، فيقلدونهم تقليد القردة ويدعون أنهم علماء حكماء أعرف بطريق الله من غيرهم، وهم شياطين وضلال، أعاذنا الله منهم.

التهذيب فى طريق آل العزائم

فالتهذيب فى طريقى هذا ينبغى أن يكون على يد المرشد، وينبغى أن يكون الأخ المسترشد على بينة من أمره فى مقام التهذيب، حتى إذا أمره المرشد بأمر ليهذب به نفسه سارع إليه بحكمة، حتى يكون ملامتياً صادقاً، إذا لام الناس عليه وعنفوه وضربوه فرح بذلك، لأن مراد المرشد سقوطه من قلوب الخلق وسقوط الخلق من قلبه، حتى يكون واحداً لواحد، فإذا أذن بالتهذيب ولم يفقه معنى التهذيب، أو سمع المرشد يأذن فرداً من الأفراد بتهذيب خاصاً به، فقلده، كان ذلك سبباً فى ضلاله، وضلال كثيرين معه.

الملامتى المخلص فى طريق آل العزائم

فإن الملامتى المخلص فى طريقى هذا، يكره من يميل إليه ومن يحبه، خشية أن يقع فى الضلال، لأن التهذيب خاص الخاص، وهو فى ظاهر الأمر خروج عن الاعتدال، وهو فى الحقيقة عين الاعتدال، لأنه الدواء الوحيد لهذا السالك، وقد يقطع العضو من الجسم لصلاح الجسم، وقد يكوى الجسم لرد العافية عليه.

الذاتى من الملامتية فى طريق آل العزائم

والذاتى من الملامتية فى طريقى هذا، لا يُرد إلى الخلق إلا بعد كمال التهذيب، فإذا رجع

إلى الخلق قبل تمام تهذيبه كان كالفاكهة النيئة، من تناول منها قطعة أمرضته، وكيف يميل الذاتى إلى الشمائل والشئون فضلاً عن الخلق؟! ليس هذا من طريقى.

هذا والذاتيون هم المؤهلون للذات الأحدية، الذين انكسرت قلوبهم لعظمة الحق، فجبرها الجبار كما يجبر أحدنا الإناء المكسور، ومتى جبر أحدنا إناءه استعمله، ومتى جبر الحق قلباً استعمله، قال ﷺ: قال الله تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى).

آل العزائم بدؤهم تبيانى ... ساروا على نهج الهدى القرآنى
من عهد يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ صافاهم له ... لبوه بالتحقيق والفرقان
أرواحهم فى أفق أعلى شاهدت ... أجسامهم فى الشرع حصن أمان
أصغوا إلى محبوبهم بقلوبهم ... لم يلفتهم ذو هوى شيطانى
فوق الصراط سعوا بصدق عزيمة ... بدء السلوك مشاهد الإحسان
لم تلههم دنيا ولا أحواهم ... والكرامة عن رضا الرحمن
فروا من الكونين شوقاً للعلى ... فى حصن شرع المصطفى العدنان
العلم حصنهم من الشرك الخفى ... والحب جملهم بخير بيان
نور الشريعة مشرق لعقولهم ... والوجه للأرواح عين عيان
آل العزائم جملوا بعوارف ... فازوا بفقه غوامض القرآن
هم أنجم للاهتدا قد بينوا ... بالعلم والأحوال والعرفان
أهل الملامة والحبيب المصطفى ... أولاهمو الميراث حال تدان
ميراث خير الرسل شرع ظاهر ... خمر الفتوة للقريب الفانى
لم يقهرن آل العزائم مبطل ... يدعوهمو للصد والهجران
سر العناية من ﴿أَلَسْتُ﴾ يعينهم ... هم صفوة الحنان والمنان
فروا جهاداً للولى ووجهوا ... أرواحهم للقدس فى الأكوان
فوق التراب تراهمو وقلوبهم ... قد علقت فى قدسه النورانى
ما فارقوا حصن الشريعة لحظة ... فى عصمة الوهاب والديان

من فارق الشرع الشريف فليس من ... آل العزائم فافهمن برهانى
أبدال رسل الله كيف يضلهم ... شيطان أهل الكفر والطغيان
هم أنجم فى أفق أعلى أشرقت ... أنوارهم لاحت من التبيان
الله أظهرهم نجوم الاهتدا ... علم شهود نورهم ربانى

خدع أهل الضلال

لأهل النفوس الخبيثة تأثير على أهل التسليم من الصبيان والنساء والأتقياء من الرجال، ممن صفت جواهر نفوسهم وظنوا أنه لا يوجد من المسلمين مُضل ولا خبيث، فينخدعون لأول عارض يعرض لهم من ضال جَمَّل ظاهره للخلق، ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ المنافقون ٤ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام ١١٢.

فأعظم خدعهم ما يزخرفونه لأهل التسليم مما يوهمونهم به، فيبتدئونهم بذكر ولى مشهور، ويثبتون له أشياء بزخرفة كلامهم، حتى يعتقد أهل التسليم أن فلاناً من الأولياء يضر وينفع، ثم يستدرجونهم إلى أن يتمكنوا من قلوبهم، فيتصرفون فى أموالهم ويلعبون بعقائدهم، فتارة يمنعونهم عن الحق وتارة يأمرونهم بالباطل، والقلوب صاغية والأبدان لينة، وكم أضل الضُلال بأهل المقامات العلية من أفراد الوجود أمماً.

هذا سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام الذى غضب عندما ناداه رجل: أيها المعلم الصالح، فقال: أنا لست المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله. كيف جعلوه إلهاً يعبد من دون الله لأربعمائة مليون من الناس (ذلك حين إملاء الكتاب).

وانظر إلى اللعين إبليس – لعنة الله عليه – كيف زخرف القول لآدم، فأخرجه من الجنة.

وكم ترى السالكين من المسلمين فى أرقى مقامات التسليم، يعلمون أن عداوة الأخ المسلم ضلالة، يعادون بعضهم للتعصب لولى من الأولياء، وكم بين أهل الطرق المختلفة من

خصومات لا تكون إلا بين المختلفين فى الدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ الأنعام ١٥٩، وما تفرق أهل السلوك المسلمين على بعضهم إلا من زخرفة أهل الضلالة لهم، ومدح كل فريق الولى الذى يتبعه ليدوم إقبال الخلق عليهم وهم دعاة إلى جهنم ـ نعوذ بالله منهم، وكم أبعدوا قلوب المسلمين عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ وعن الحق وعن الصريح المبين، وأولياء الله براء منهم، كما تبرأ المسيح من أعدائه الذين جعلوه إلهاً.

ومن خدعهم أن يحفظوا مواجيد أهل الصدق، ممن وقع بهم العلم على عين اليقين، وهجمت عليهم صولة بالحق فأفنتهم عنهم بالحق، فيترنمون بألحان شجية بتلك المواجيد أمام النفوس الطيبة الطاهرة، ومعلوم أن السماع كما قررنا من أكمل أنواع تزكية النفوس، فإذا أصغت الآذان إلى تلك المعانى القدسية بالألحان الشجية، زكت النفوس وقبلت وأحبت من تغنى، ورسمه الخيال فقلده تقليد الأعمى واتسع القلب فقبل، فإذا دامت تلك النغمات على النفس ربما أفسدت القوة المدركة فحصل الخلل فى التوازن، فيحصل للسامعين زيغ عن الحق، فيظنون أنها أحوال سامية وأنوار علية ويقرون الناس بهذا وهو ضلال. أعاذنا الله منهم.

ومن خدعهم أن يصنعوا نفيراً من الورق يطوى على بعضه ويطول عند اللزوم، فيختفون فى خلوة ويتكلمون فيه بأصوات مختلفة فيسمعه الجالسون من بعد، ويوهمونهم أن الجن يحضرون مجالسهم، وهى خدع تقبلها النفوس الطاهرة المفكرة، بعد أن تختل قوى التوازن بالمقدمات السابقة.

ومن خدعهم أنهم يوهمون الناس أن يرسلوا لهم هواتف، ويقوم دعاتهم الضالون فيوهمون المسلمين بتلك الأوهام، والعقيدة قوية على القلب فتحصل محاكاة الأصوات فى الآذان، فيظن السالك أن هذا كلامهم وهم بعيدون عنه ويتخيل لهم معان اقتضاها الحال.

ومن خدعهم: أنهم يوهمون المسلمين أن من علامات القبول أذية الناس، وإنكارهم عليهم بخروجهم عن جادة الطريق المستقيم، ويوهمونهم أن ذلك حصل للأنبياء والأولياء،

نعوذ بالله من خدعهم، فإن ذلك حصل للأنبياء حال دعوتهم إلى الحق وقيامهم بما أمر سبحانه، وحصل للأولياء حال تجديدهم لسنة رسول الله ﷺ ومعاداة الأمراء المخالفين للسنة، أما اللوم على مخالف السنة فهو من أكمل السنن المحمدية. قال ﷺ: (اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس) وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ آل عمران ١٠٤، وقال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله).

ومن خدعهم أنهم يوهمون المسلمين بأنهم أبدال الأولياء وأبوابهم والعارفون بمقاماتهم، والنفوس مشتاقة إلى القرب من الله والوصول إلى حضرة رسول الله ﷺ، وإلى نيل السعادة بصحبة الوارث لرسول الله ﷺ، فيتبعون هؤلاء الضُلال طمعاً فى نيل هذه الخيرات، وهم يعتقدون أنهم على الحق حقاً، ولما كان الله تعالى سبق فى أزله العناية بأمة حبيبه ومصطفاه، لم يجعل للباطل سلطاناً على أمة حبيبه ومصطفاه، فلا يلبث هذا الباطل إلا ريثما يظهر الحق وتتضح للسالكين الحقيقة، فينيبون إلى الله تائبين. ومن قرأ تاريخ الخوارج وما كانوا يزخرفونه من القول، حتى حاربهم أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب وأنت تعلم من هو على بن أبى طالب، فجمعوا عليه جموعاً وحاربوه ورموه بالكفر والضلال، لأن إبليس لعنة الله عليه أخبر الله عنه فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ الأعراف ١٦-١٧، أعاذنى الله وإخوانى المؤمنين من الشيطان الرجيم ومن أعوانه من الإنس والجن.

ومن خدعهم أن يأمروا المسلمين بالرياضات النفسانية، لينالوا غرضاً من أغراض الدنيا، فينقلبون من الإيمان إلى الشرك، وتكون عباداتهم لغرض سافل، ومنهم من يأمر تلاميذه بترك العلم والتعليم وترك الوظائف والرواتب بل وترك الأعمال الشرعية، موهماً أن ذلك يحجب عن الأنوار.

ونعم، فإنه يحجب عن الأنوار الإبليسية، وقد رأيت رجلاً فى آخر صعيد مصر، ازدحم عليه الطلاب، لا شغل له إلا شرب التبغ، وسألت أحد أتباعه، لِمَ لَمْ تُصَل على النبى ﷺ؟

فقال: إن صليت عليه ذهب نورى. وانصرف إلى شيخه فأعطاه عصاً طويلة، وقال له: امض بتلك العصا واسلب حاله، فجاءنى وأنا جالس مع بعض أهل العلم فى أسوان، ووقف أمامى بالعصا وتمتم بكلمات، فاسترسلت فى مذاكرتى حتى انتهيت منها، ثم نظرت إليه ففهمت خبث نفسه، فقلت له: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء ٨١، فصدرت الكلمة إلى نفس خبيثة ذات همة، فسقطت العصا من يده وجلس على الأرض، ودنا منى فأسمعته بعض آى القرآن الكريم وشرحت له معناه، فتاب إلى الله وأقبل عليه سبحانه، وأخبرنى أن شيخ شيخه بمصر، وأنهم يتركون الأعمال الشرعية ليزيد حالهم، فتحققت قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ مريم ٧٥، وقال ﷺ: (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، وسألت الله تعالى أن يحفظ المسلمين جميعاً من دعاة الجهالة، إنه مجيب الدعاء.

وكم لهم من خدع يستعملونها لكل نفس بحسب ما تميل إليه، فمنهم من يدعى علم الكيمياء والأوفاق، ومنهم من يدعى فتح الكنوز وفك الرموز، ولما كان الصبيان والنساء وأهل التقوى من الرجال، أشوق إلى الحق وأقرب إلى التسليم، كان تأثيرهم على هؤلاء أكثر، وكم يظنون أن هذا حال.

حقيقة الحال

وحقيقة الحال قهر النفس على ما لا يلائمها، وعمل عظائم الأمور فى طاعة الله مما لا يتحمله إلا أهل العزائم، كالخروج من الأسباب ثقة بالله، وكبذل ما فى يده للطيور والكلاب والفقراء، واشتغاله بواجب الوقت مع تألمه من العمل، وخروجه من المعتاد له كهجر النساء وترك ملاذ المأكل والمشرب والمنكح، وكابتذاله بين الناس بعمل المهن الدنيئة ليصغر فى عين الناس، وكالمبالغة فى صلة الرحم وبر الوالدين وإكرام الضيف، وكالصبر على عظائم الأمور والرضا عن الله فى كل مقدور، ومراعاة الأدب الكامل فى كل معاملاته القلبية والجسمية، والإحسان إلى المسئ فطرة، وصلة من قطعه عزيمة، والمسارعة إلى تأليف القلوب وإزالة الشحناء منها، والتجمل بمحاسن الأخلاق المحمدية، وحفظ الجوارح من الغفلة فى كل

أنفاسه، وسيره على الصراط المستقيم، الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، واستواء الناس فى نظره، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وحبهم جميعاً لله، وبغض من يبغضه لله، فيحب الطائع ولو حرمه وخاصمه، ويبغض العاصى ولو أطاعه وأكرمه، ويخاف الله فى خلقه ولا يخاف الخلق فى الله، ويحب الله فى الخلق ولا يحب الخلق لغير الله.

هذه أحوال أهل العزائم

وليس منها ما يدعيه أهل الجهالة

الحال حجة دعوى سالك فان ... والحال جذبة محبوب لحنان
الحال ينكره أهل الجهالة بل ... أهل الضلالة من خب وشيطان
لكن أهل الصفا يخفون حالهمو ... عن كل مبتدع عن جاهل جان
العلم بالله نور لا يراه سوى ... فرد مشوق إلى روح وريحان
خل الإشارة لا تبدى غوامضها ... إلا لفان لدى محبوبه دان
إن أنكر الحال أهل الجهل فاعذرهم ... فالعلم بالله من أسرار إيقان
أخفوا علومكمو صوناً لها عمن ... مالوا إلى الحظ من وزر وبهتان
تستروا عنهمو فالغيب لا يجلى ... إلا لأهل الصفا من خير إخوان
وادعوا إلى الله بالحسنى لترتفعوا ... عنكم بجذبة وهاب وحنان
سيروا على منهج المختار واجتهدوا ... أن تجمعوا الخلق للحسنى بقرآن
أخفوا عن الخلق ما لا يعلمون فكم ... خصم أتى طائعاً فى حالة الفانى
والله أسأل أن يهدى بنا يعطى ... رضوانه والعطا فضلاً بإحسان

مآخذ تزكية النفوس

الحس مصدر الأمراض النفسية

اعلم أيها الأخ المسترشد أيدنى الله وإياك بروحانية رسول الله ﷺ أن الإنسان نَفْس وجسم وحس، وأن بلاء الإنسان فى كل الأمراض النفسانية فى الإنسان من الحس، ومن مَلَك حسه وقهره بالقرآن والسُنة يرى ربه سبحانه، ويبلغ من الدرجات العلية أن يكون ربانياً روحانياً عالماً راسخاً فى العلم، لأن الحس يقهر العقل والنفس والجسم، وهو باب الشيطان الذى يدخل منه على القلب، وذلك لأنه كان له غذاء يتغذى به فى الجنة، وهو مسراته ببهاء جمال الحق، وبهجته بأنوار التجليات التى تبهر العقول بضيائها الملكوتى، فلما أن تمكن الشيطان من آدم عليه السلام فى الجنة، كان سبباً فى معصية آدم وأكله من الشجرة، فغضب الله على إبليس ولعنه، لأنه من جسم نارى لا يصلح لخير، ثم غضب على آدم وتاب عليه لأنه من طين، وحكم عليه أن يعيش بكد وعناء، وغضب على الحس فحرمه من غذائه الذى كان يتغذى به فى الجنة، حتى يعود إليها إن اختاره الله تعالى، فهو فى غاية الجشع إلى غذائه يفتش عليه ولا يجده، فيوقع النفس والجسم فيما يغضب الله تعالى، وتلك القوة التى هى الحس منتشرة فى جميع الجسد، وجنودها السمع والبصر والشم والذوق واللمس والفرج والبطن، فهى تقهر العقل، ولا يقوى على مدافعتها إلا إذا أعانه الله تعالى ووفق من يشاء، فيهب له النور الذى تستبين به سبل الله تعالى، وتظهر بشاعة الذنوب والمعاصى وقبحها، ولديها فقط يقهر العقل الحس، وقليل ما هم.

الإنسان قد يفقد حسه وهو حى

لذلك أقول لك يا أخى أن الأمانى لابد منها للإنسان ما دام الحس، وقد يفقد الإنسان الحس وهو حى، وليس الحس بلازم ما دامت الحياة، فإن بعض الناس قد يفقد سمعه وبصره، وقد يفقد ذكره ويديه بالأمراض، ويفقده بالنوم، وقد يفقده بما يحزن حزناً شديداً، أو

يفرح فرحاً شديداً، وليس بمصيب من قال: إن الحس لا يفارق الحياة، فإنه قد يفارقها كما قررت لك.

مجاهدة الحس عند السالكين

وإذا تقرر ذلك، فيكمنك أيها المسترشد أن تجاهد نفسك أكبر الجهاد بالمراقبة والرعاية، حتى لا يؤثر عليك الحس تأثيراً يوقع فى الخطيئة ونسيان يوم الحساب، وجاهده لتلوح لك آيات الله جلية فيما تراه وتسمعه وتشمه وتذوقه وتلمسه وتتخيله وتتوهمه، فتكون آيات الله أقرب إليك من كل ملموس بأى قوة من القوى الحسية، وقد ترقى إلى مقام فوق ذلك، حتى تفقد الحس الذى به شهود الآيات، بدوام جلاء جوهر نفسك بالتزكية، وبدوام عناية الله بك حتى ترى وجه ربك حيث وليت وجهك، وتكون عند ذلك ملكوتياً لا ترى إلا ملكوت السماوات والأرض.

الحس قد يقوى سلطانه على السالكين

وكما أن للسالك قبساً يقتبسه من أنوار الملكوت حال مجاهدته حسه، فإن الحس قد يقوى سلطانه على السالك فيوقعه فى السيئات، فإذا تذكر أسرع إلى التوبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ النساء ٣١، وقال ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له).

وكل سالك لا يسلم من السيئات، ولو بنسيان ذكر الله تعالى، أو اشتغاله بالنوافل وترك الواجبات التى يقتضيها الوقت. قال داود عليه السلام: (البار يسقط سبع مرات فى اليوم) ومعنى ذلك والله أعلم أن الأعضاء السبع لابد لكل عضو منها من السقوط فى كل يوم ولو مرة، ولو بترك القيام بشكر الله على سوابغ الآلاء المتوالية على كل عضو من أعضائه فى كل نَفَس، بل وعلى كل شعرة وعظم وعرق. فإن عرقاً صغيراً لو تنبه لجعل الحياة مُرة بما يناله الإنسان من أصغر عرق فى جسمه. وفى الجسم مئات من العروق سكانة، لو ضرب منها عرق لتمنى

الإنسان موته، وهو يغفل عن النعم المحيطة به وفى نفسه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا﴾ إبراهيم ٣٤، فإذا كان البار يسقط سبع مرات فى اليوم فكيف بالفاجر، ومن هذا نفهم قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة أحدكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته).

ومعنى ذلك أن الأعمال الصالحة فعل الله فى العبد، وهى أجل نعمة من نعم الله علينا، يعجز الإنسان عن شكرها. ومن غفل عن تلك الملاحظة فهو تارك للشكر على النعم الغزيرة، وقد قرر الله تعالى الخطاب ليعمم فضله على الناس بالعفو والتوبة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحنى وأهلى وأولادى وإخوانى العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، وأن يعيننا على شكره وذكره، إنه مجيب الدعاء.

شتان بين تزكية النفوس عند أهل الإيمان وغيرهم

إنما يسارع لتزكية النفس أهل الإيمان بالله جل جلاله دون غيرهم، وإن اجتهد غيرهم فى تزكية النفوس، فإنما يريدون بتزكيتها تحصيل غايات فانية ورياسات زائلة وحظوظ دنيئة، كما يسارع الإنسان إلى تزكية نفوس البهائم، لتعيش داجنة عاملة لخيرها ولخير بنى الإنسان، ولذلك فإنهم التفتوا عن مناهج التزكية الحقيقية التى بها يصفو جوهر النفس مما كدر صفوه من أمراض الجمادات والنباتات والحيوانات والحظوظ الإبليسية، حتى تتخلى عن ملابسة الحظوظ والأهواء التى تحجبها عن المسارعة إلى القيام بما خُلقت له، وعن تحصيل العلم النافع من مآخذه الحقيقية، وعن العمل الصالح الذى يكون به المؤمن فى معية الله تعالى، مُجملاً بالعقيدة الحقة والأخلاق الربانية والأحوال السَنِية والأعمال السُنيةِ.

الفرد المسلم هو المجتمع

ولما كان المسلم فى الحقيقة هو فرد ذاته، وهو المجتمع فى أهميته، لأنه وإن كان المسلم واحداً إلا أنه مُطالب شرعاً بما لا يعمله إلا المجتمع، لأن كل مسلم جعله الشرع كعضو، وجعل المجتمع كالجسم. قال ﷺ: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل

الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وقال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ المائدة ٣٢، فكأن الفرد الواحد من المسلمين هو المجتمع فى الحقيقة، إذ بصحته صحة جميع الجسد، فهو مُطالب أن يزكى نفسه ليطهرها من العقائد الفاسدة.

وسائل تزكية النفس

بتحصيل العلم بالله وبأيام الله تعالى من القرآن الكريم ومن بيان رسول الله ﷺ، والأئمة الهداة الراشدين رضى الله عنهم، والعلم بأحكام الله تعالى من مآخذه الحقة، للعمل لا لمماراة العلماء والسيادة على الناس، وكل مسلم مكلف أن يتعلم ما لابد له منه، حتى يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله ﷺ وللوالدين والأقارب ولجماعة المسلمين من الفنون الصناعية والتجارية والزراعية، وما يلزم ذلك من وسائلها بقدر الاحتياج إليها، كل ذلك بعد تحصيل ما به يكون المسلم مسلماً حقاً، عالماً بمنزلته عند الله تعالى وعند رسول الله ﷺ، عالماً بالمسئوليه الموجهة عليه.

طرق تزكية النفس

أقول قولى هذا لأبين لإخوانى أن طريق تزكية النفس أن يكون أولاً بالأخذ من كتاب الله تعالى ومن كلام رسوله ﷺ، فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، وتدبير كل راع رعيته من والد أو والٍ أو أمير، وأن تكون بقية الفنون اللازمة للعمل، كما أمر الله به أمراً ثانوياً كعلم الرياضة حساباً وهندسة ومنطقاً وغيرها.

الفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة

إن بعض من جهلوا طريق تزكية النفس أفسدوا على الناس نفوسهم بل وعقائدهم بل وآراءهم وأخلاقهم، ففتحوا قبور اليونان والفرس وأخرجوا فحم آراء ودخان أطماع وشرار خدع، وأعجبوا بها كل الإعجاب ولفتوا إليها أفكار من لا علم لهم بعلوم الإيمان واليقين، ولا معرفة لهم بحكمة أحكام الله وأيام الله ولا علم لهم بآيات الله، ومعلوم أن تلك العلوم

المتعلقة بضروريات الحياة الكونية، لها مجانسة ومشاكلة للنفوس والعقول، والعلوم الشرعية المتعلقة بالإسلام والإيمان والإحسان والإيقان ومعرفة الله تعالى، ومعرفة النفس ونيل فضل الله العظيم ورحمته، ومجاورة أنبيائه الكرام فى مقر رحمته، ونيل رضوانه الأكبر فى مقعد صدق، لا تجانس العقول ولا تشاكل النفوس البشرية والبهيمية، إلا بعناية من الله وتوفيق وعصمة منه سبحانه، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الكهف ١٧.

علم الدنيا وسيلة لعلم الآخرة

ولما كانت علوم الهندسة والحساب والمنطق وما يلزمه من الجدل والمناظرة والبحث والاختلاف، كلها فنون لازمة لتحسين حالة المعيشة، وراحة الأبدان من المضار والقلوب من الشواغل، ليتفرغ المسلم للإقبال بالكلية على مولاه الذى أوجده وأمده، فتلك الفنون وسائل فعالة لتيسير ما به فراغ القلوب، لتحصيل العلوم النافعة وراحة الأبدان للعمل بالعلم النافع، ولينتفع الإنسان بما خزنه الله له من النعم فى كنوز الأرض وفى خزائن البحار وفى بطون الغابات وفى طبقات الجبال، لتظهر آيات الله تعالى فى كونه المحسوس بقدر ما ينكشف للإنسان من خواص الكائنات، وما يتضح له من مراتب الوجود، وقد اجتهد السلف الصالح فى تقريب بعض الفنون التى تحصل عليها الإنسان فى الأزمنة الماضية بباعث الضرورة، أو بداعى الرُقى والإثرة مما هو خير للمسلمين، حتى صححوا ما كان سقيماً من مبادئهم الكونية، وأتموا الناقص من الفنون، واكتشفوا ما خفى على السابقين، بما أشرق عليهم من نور القرآن والسنة، لأن الله تعالى حث المسلمين على النظر فى الكائنات والبحث فى الآيات، ولكن خفيت حكمة ترجمة تلك العلوم على أهل النفوس اللقسة، فمنهم من ذمها وقبحها لجهله بحكمة ترجمتها، من اختراع ما لابُد للمسلمين منه، وعلم أخلاق الناس وطبائع البلاد، والقيام بما أمرنا الله تعالى من الجهاد فى سبيله والرحمة بعباده والعمل بمراضيه.

وكل ذلك لا يكون إلا بتيسير الآلات والأدوات وكثرة المخترعات وعلم المعادن والنباتات ومعرفة الحساب والهندسة والمنطق.

استعمال علم الدنيا فى غير ما ترجم له

ومنهم من استعمله فى غير ما ترجم له، فظن أنه لا يعرف الله إلا به، وفتح باباً من الشر على المسلمين، فَرَّق جماعتهم، حتى أظلمت القلوب وأشربت حب الشبه والشكوك والريب، وحصلت المنافسة والبغضاء والتفرقة، حتى تفرق المسلمون شيعاً فتركوا الكتاب والسنة فتنجست النفوس، وصارت تزكيتها بتلك الطرق غمسها فى حضيض الخبائث، وسجنها فى أسفل سافلين البهيمية ولوازمها والبشرية ودواعيها الإبليسية ومقتضياتها، فصار المسلم حرباً على دينه، حتى انفكت عروة الدين عروة عروة، فرفعت الأمانة وتركت الزكاة والبر والصلة بين الأقارب، بعد أن كانت بين الطوائف المتنائية من المسلمين، ثم ارتفعت الرحمة والعاطفة وصارت من المسلمين لأعدائهم، بما أُشربوا فى قلوبهم من حب فلسفة اليونان والرومان والفرس. حتى دعاهم ذلك إلى حب الفرنج والإعجاب بهم وتقليدهم، ثم ترك الصيام إلا عند من عصمهم الله، ثم تركت الصلاة إلا عند من وفقهم الله، ثم ظهر الربَا علناً وصار كالبيع، ثم انتشر الزنا، فتغيرت معالم السنة بالبدع المضلة وأنوار الشريعة السمحاء بالظلمات المضرة، حتى صار بعض حملة العلم الشرعى أنصار تلك المبادئ، وأئمة يدعون إلى البدع للأعادى، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كل ذلك لأننا جعلنا علوم اليونان والرومان والفرس أولى بالأخذ بها فى الدين عقيدة وأخلاقاً وتربية من الأخذ بالقرآن والسنة وعمل أئمة الهدى، فصار المسلم يمكث نصف عمره فى تحصيل العلم فلا يزداد إلا قسوة فى قلبه وجفوة فى طبعه، وإنكاراً على فضائل الدين وازدراء بأعمال الصالحين، وتهكماً بمن أقبلوا بكليتهم على الله محتقرين الدنيا وما فيها.

فيرى زيارته للأمير أو مجالسته للغنى أو سعيه فى تحصيل وظيفة أو رياسة، أحب إليه من الله ورسوله ﷺ والعمل بكتابه سبحانه وبسُنة نبيه ﷺ، كل ذلك مما دعا إليه أعداء الحق، بوضع عقائد بدعية وإقامة الأدلة الجدلية بالقوانين المنطقية، حتى جرؤ طلبة العلم على سوء الأدب بوضع الاعتراضات والشُبه وحصلت العداوة بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ الأنعام ١٥٩، وكلما جاءت أمة لعنت أختها.

العلم هل فهمه يكفى لتقريبى ... إلى مقام التدانى نور محبوبى
إن كان هذا فمالى قد أميل إلى ... داعى الهوى بعد فهمى بعد تأديبى
العلم كالمال برهان على نفسى ... إنى تطهرت أو إنى كمكلوبى
أما اليقين فبرهان على قربى ... صححت حالاً لتأييد وترغيب
ذق باليقين مقام الفرد واستجلى ... سر الحقيقة منه غير مكذوب
كم عالم تائه يهوى إلى سفل ... مسارع للهوى فى كل منسوب
لو كان علمى جذباً إلى الأعلى ... لما رمانى الهوى فى سفل تغريبى
العلم عند بنى الإفرنج أوقعهم ... فى هوة الظلم فى كفرٍ وتعذيب
علم اللسان وعلم الكون هاويتا ... شرك لكل امرئ فى العلم مقلوب
العلم بالله حصن الأمن يطلبه ... فردٌ يقول أيا نفسى الهوى غيبى
العلم بالله طهر النفس ظاهره ... سير إلى الله فى أمن وترهيب
وباطن العلم كشف الغيب بعد هدى ... كشف الحقائق نيلى كل مطلوب
فى فجر سادس يوم للمحرم لى ... شوق شديد إلى فوزى وتقريبى
الله أسأل إحساناً ومغفرةً ... فضلاً من الله أعطى خير مشروب
فى حظوة الاجتبا أعطى الرضا الحسنى ... بالوصل أحظى وبالزلفى وبالطيب
مولاى شبت فوفقنى لما ترضى ... يا نفس بعد مشيبى سارعى توبى
شيخوختى تقتضى جذبى إلى ربى ... حتى أهنى برضوان وترحيب
يا رب هب لى العطايا منك واسعةً ... فالفضل منك إله العرش مرغوبى
أكرم بنى وأهلى منك بالنعمى ... إخوان صدقٍ وأكرم كل مجذوب
فى دار دنيا فهبنا الفضل واحفظنا ... فى دار أخرى فهبنا خير موهوب

حقيقة التزكية

أُبين حقيقة التزكية التى أمرنا الله بها وحثنا عليها بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الأعلى ١٤، وقوله سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٩، ولا تكمل تزكية النفس حتى يعلم حق العلم أنها مفطورة على فطر اقتضتها قواها التى ركب الإنسان منها، فالإنسان جامع لكل الحقائق الكونية، فهو وإن كان عالماً صغيراً إلا أنه جمع جميع العالم وزاد عليه، فهو مُركب من الجماد والنبات والحيوان والقوة الملكية والقوة الإبليسية، وقد جعل الله تلك القوى وإن كانت متفرقة متحدة، فجمعها الإنسان.

ومتى تحقق من يريد تزكية نفسه أنه جامع لكل تلك الحقائق، علم حق العلم أن أكثر قواه سفلى المصدر سيئ العمل، أو نارى المصدر شرير العمل أو نورانى المصدر خير العمل، أو نفخة القدس، وكل تلك القوى يقال لها إنسان، فإن لم تنكشف للإنسان تلك الحقائق جلية حتى تكون كل قواه خاضعة للروح الملكية أو للنفخة القدسية، هلك الإنسان.

وإذا علم الإنسان حقيقته علم مرتبته فى الوجود، وعرف ربه معرفة تجعله يخشاه بقدر علمه، ويخاف مقامه بقدر شهوده، ويجاهد نفسه فى كل أنفاسه، فلا يفخر ولو أجلسه الله على بساط مؤانسته، ولا يغتر ولو منحه كلمة ﴿كُن﴾ للتصريف فى كونه، ولا يخرج عن الوسط، فيهدم بقية القوى بترك رعايتها حق الرعاية، كما قال رسول الله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ البقرة ١٤٣، وإنما رفع الله الإنسان إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأجلس الإنسان على كرسى من نور قُدَامَ عرشه وواجهه بوجهه، لما جمع فيه من القوة المتضادة والعناصر المفارقة، وأظهر فيه من لطائف ملكوته وأنوار لاهوته وغرائب قدرته وعجائب حكمته، ثم هداه السبيل وأقبل به عليه بمعونته وتوفيقه، ولو كان روحاً مجردة لما رفعه هذه الرفعة، أو جسماً مجرداً لما أكرمه هذه الكرامة قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الإسراء ٧٠، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ الجاثية ١٣.

هـى النفـس إن زكيتها تـشهـد الغيبا ... يلــوح لهــا لا ستر ثم ولا حجبــا
تجـمل بــالأسرار يجلى لهــا الخفــا ... تـشاهـد أنـوار التجلى تـرى الـربـا
وقـد أفلحت نفـس تـزكت فـووجهت ... بـوجهٍ على قــد أضــاء ولا ريـبــا
أضــاءت لهــا الأسـماء فى أفق هـيكل ... فنـاولهـا الـراح الطهـور ولا شـوبـا
هـى النفس لـو تـزكـو من الحظ لحظة ... لهـا تـسجـد الأملاك قـد تشهـد الغيبا
هـى النفس روح القدس تنفخ بـالصفا ... فـتـظهــر أنــوار الغيــوب لمن لـبـى
وفى طينــةٍ نـفخـت فلاح ضيــاؤهــا ... فطـافت بهـا الأملاك وهب لهـا الحبـا
أيـا نفس لـو تـزكين من شـوب بـاطل ... تفـوزين بـالإقبـال يـمنحك القـربـا
ففــى أحـسن التـقـويم قـد كنت أولاً ... جمــال جمـيل والكـتــاب لـنــا أنـبـا
صلاةً على نـــور القلـــوب محـمـــد ... بهــا نعـط فـضـل الله والقـرب والحبـا

* * *

أمراض النفوس وعلاجها

نبتدئ أولاً بذكر أمراض النفس، نذكر كل مرض ونفصل أعراضه وأسبابه وعلاجه والأدوية اللازمة له.

أمراض العلماء

العلماء الذين أعنيهم فى كلامى هذا هم الذين منحهم الله تعالى الفقه فى دينه، ووهب لهم سبحانه وتعالى علم الرعاية فى أحكامه، حتى علموا حكمته فى كل حكم، فسارعوا إلى المراد له جل جلاله فيما حَكم لا إلى الحُكم، كما يفعل أهل التقليد الذين لا هم لهم إلا تأدية المأمورين به، بحركات وسكنات وألفاظ مجردة عن الرعاية، التى بملاحظتها يصير العالم كأنه يرى الله، أو تحصل له الخشية من رعاية أن الله يراه، فيكون إما فى مقام الإحسان لاستغراقه فى شهود آيات الله وحكمته ومعاينة آثار وأنوار عجائب قدرته، فيكون روحانياً

وهو جسمانى، وملكوتياً وهو إنسان حيوانى، جامع بين الضدين، غلبت عليه أنوار الروح فأخفت ظلال جسمه، ففارق لوازم البشرية استحضاراً، أو مقتضيات الآدمية حضوراً، فقام عاملاً مخلصاً لله بالله كأنه يرى الله أمامه، أو مخلصاً لله محجوباً عن شهود أنه بالله، فيكون موقناً أن الله يراه فى عمله، وهؤلاء هم العلماء الذين أعنيهم بكلامى.

أمراضهم خفية عن العقول غامضة عن النفوس، لأنهم مع كمال الإخلاص يشوب توحيدهم شوب بواعث الهمة على العمل، فيحجبون عن خالص مشاهد التوحيد، إما للعلة الباعثة، أو لعدم تصفية مشهد التوحيد من شوب نسبة العمل لأنفسهم بشهود المجاهدات، وهو التى تظهر أنها قربات إلى الله وشوق إليه وحب فيه، وقد يقوى هذا المرض حتى يدعو إلى شهود الإلهية فى العامل من حيث لا يشعر، فيأنس بالعمل ويطمئن بالعرفان، والأُنس بالعمل والطمأنينة بالعرفان شرك أخفى فى طريقنا هذا، ومن شغله العرفان عن المعروف، والعمل عمن هو مول وجهه شطره، واحتجب بنسبة العمل لنفسه فهو مُشرك فى طريقنا، وإن كان من أهل الفردوس الأعلى، ومرض الإلهية أعظم مرض عضال يصاب به العلماء الربانيون.

وقد جعل الله له من أنواع المعالجات أمَرَّهَا ومن العقاقير أحَدَّهَا، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء ٨٢، ومن دواء هذا المرض قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ المؤمنون ١٢، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الواقعة ٦٢، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ الإنسان ١-٢.

وأهل العلم يعلمون أن الغواية غير الضلال، فإن المؤمن قد يغوى ولا يضل، لأن الضلال هو الكفر بالله تعالى، وأما الغواية فهى معصية الله تعالى شهوداً أو ذوقاً أو وجداً أو علماً أو بالجوارح، وأن من حجبه العلم والمعرفة والعمل والتقوى عن كمال التوحيد الذى هو الجوهر المقصود بالذات لله تعالى غوى، والغواية قد تحصل من الإنسان بالتأويل أو لقصد نيل الخير الذى يظنه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ طه ١١٢.

من أمراض الخفا للعلماء الربانيين

❖ الفرح بإقبال الناس سكوناً إليهم من غير ملاحظة. وقد جعل الله سبحانه لهذا المرض علاجاً للمؤمنين، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ آل عمران ١٤، وقد خاطب الله رسوله ﷺ وأراد بخطابه المؤمنين، وهم من علمت مراقبة لله وخشية منهُ فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ النصر ١، إلى آخر السورة. تناول من هذا الطهور، وأسكن بكلك إلى ربك وافرح بفضل الله وبرحمته، وسبحه واستغفره عند إقبال الخلق، ولا تفرح بحالك وعملك لأن العصمة من الزلل بالله تعالى.

❖ النظر إلى أهل المعصية بعين ملؤها المقت والغضب. وقد جعل الله لهذا المرض دواء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فصلت ٣٣، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ النحل ١٢٥، وقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح ٢٩.

❖ الأُنس بما يشهدونه وإن خالف ما عليه الجماعة. وقد جعل الله تعالى لهذا المرض دواء وهو قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ النور ٦٣، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات ٢.

❖ استعجال النقمة لمن خالفهم والكرامة لمن وافقهم، جهلاً بسر القدر، فقد يتوب المخالف فيكون من أكمل أولياء الله، وقد يكون الموافق لهم عدو لله، حفظنا الله من المعاصي، وقد شفى الله هذا المرض بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ البقرة ٢١٦، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ الحجرات ١١، وكم سارع إلى الكُفر رجال أظهروا الإيمان ولم يحصل لهم الأُنس بالإيمان، ولم ينالوا مآربهم فارتدوا على أعقابهم، قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ المائدة ٤١، وسر القدر غيب على أهل النفوس الزكية.

❖ الغضب على من لم يقم بالواجب عليهم له، وذلك مما يدسه عليهم عدوهم من أن المقصر فى حقهم مقصر فى حق رسول الله ﷺ، والحقيقة غير ذلك، فإن ذلك مرض خفى، لأن المريد قد يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله ﷺ غير ملاحظ الواجب عليه للعَالِم، لأنه إنما حجبه ليسارع إلى مرضاة الله ومرضاة رسوله ﷺ باتباعه، وشفاء تلك الأمراض قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر ٩.

❖ الغرور بما يهب الله لهم من الفقه والفهم، حتى قد ينظروا إلى من سبقهم بعين المساواة، أو يظنون فيهم التسامح والتساهل أو عدم الضبط، وقد يرمونهم بما لا يليق أن يكون بين المؤمنين، ودواء هذا المرض قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر ١٠، أقول قولى هذا وأعتقد أنه لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ النجم ٣، وعصمه من الناس بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المائدة ٦٧.

وأعتقد أن الحكمة الإلهية يهبها الله لمن يشاء، وإن خبر من سلفنا، قد يكون بعصمة من الله وإلهام منه، وكمال إخلاص من العالم لله تعالى بالله، ويكون فهمنا عن عجلة وحظ خفى علينا، وشهوة دعا إليها أمل أو طمع. والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم.

❖ ميل نفوسهم إلى مجالسة الأمراء وزيارتهم لدسيسة خفية عليهم، وهى أن يكونوا أعواناً للحق فيعظم الداء، ومن جالس جانس، وقد عد الله لهذا المرض أنفع الأدوية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هود ١١٣، وهذه إن لم تكن كل الأمراض فهى أصولها التى تتفرع منها كل الأمراض، وقد يكون مرض واحد يتفرع منه عدة أمراض، فيجهل الطبيب أصل المرض ،فيعالج الفروع ويترك الأصل فيزداد المرض، ولو أن الطبيب اعتنى بالمرض الأصلى لزالت كل الأمراض الأخرى وشفاه الله.

ولهم أمراض أخرى من أمراض الأخفى فوق أمراض الخفا أهمها:

❖ اشتغالهم بتربية المريدين وتعليمهم، فيهملون مجاهدة أنفسهم ورعايتها حق الرعاية، وقد جعل الله دواء هذا المرض فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ المائدة ١٠٥.

❖ وهنا مرض آخر فوق هذه الأمراض كلها ينتج عن الشوق إلى المفارق، فيخفى على العالم واجب وقته فى مرتبة الوجود الذى أقامه الله فيها، فيأنس بالمفارقة أُنساً بنسبة لازم رتبته الكونية، فيحصل له الشوق الشديد الذى يخرجه عن الوسط، فيفارق مكانته الإنسانية فى كون التكلف، بما لاح له من أنوار الملكوت فى نفسه وفى الآفاق وفى السماوات وفى الأرض، فقد يقع فى الفتنة المضلة أو الضراء المضرة، ودواء هذا المرض قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ البقرة ١٤٣، وقوله ﷺ: (اللهم إنى أسألك الشوق إليك بغير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة).

❖ وهناك مرض فوق هذا كله، وهو أن ينكشف له نور قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ الجاثية ١٣، فتسخر له الكائنات كلها طوعاً لأمره ومسارعة إلى هواه، لأنه بجواذب العواطف الإلهية يتفضل الله عليه فيصير عبد ربه ويمن عليه بأن يجعل له ما يشاء، سر قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الزمر ٣٤، فيلتفت لفتة تدعو إليها الرحمة التى جمله الله بها لعباد الله تعالى، فيتجاوز حدها إلى حال الغيرة التى لا تكون إلا لله تعالى عند انتهاك حرماته، تنفيذاً على تعدى حدوده بسيف أو بسوط الشريعة، لا بنار الحال وشرار الابتهال، فيسرع بعامل الغيرة للغضب وليس بيده سوط ولا سيف الشريعة، فيكون ناظراً بعين التقييد فى الإطلاق، مع أن هذا الناظر بعين التقييد فى الإطلاق قد ينظر بعين الإطلاق فى التقييد فيما يلائمه، فيكون انحط عن الرتبة العلية، وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَـٰهِلِينَ﴾ الأعراف ١٩٩.

من الأمراض الظاهرة لعلماء الدنيا الجهلاء بالآخرة

❖ من أمراضهم أن الرجل منهم إذا أخطأ فى حكم وفشا بين الناس وعورض فيه، كره أن يخضع للحق وقام مجادلاً بالباطل، ينصر نفسه على الحق غير مبال بسخط الله وغضبه، فإذا أقام الحجة على خصمه أنه محق، ورضى الخلق عنه، فيكون أبطل الحق وأحق الباطل خوفاً على نفسه من الفضيحة بين الناس، ولو أنه عالم كما يدعى لأعلن خطأه وغلطه بين العالم، ليرضى الله تعالى ورسوله ﷺ غير مبال بالخلق. فإن الإنسان محل النسيان، ومن كبرت نفسه أن يرجع للحق بعد الخطأ أقام الحجة أنه من أهل جهنم، أعاذنا الله من سوء الأدب مع الله تعالى ومن تعظيم الخلق فى جانب الحق، حتى يكره أن يُحتقر أمامهم فيتمادى على الباطل، وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى :﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الأحزاب ٣٩، ومعلوم أننا مكلفون باتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقال تعالى مداوياً هذا المرض العضال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الصف ٧، وقال تعالى فى أنفع الدواء لهذا الداء: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المائدة ٤٥، وقال تعالى مُثنياً على أهل مقام الخوف :﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الرحمن ٤٦، فالعالم الذى يخطئ فى الحكم، ثم يذكر بالحق فيأبى أن يخشع للحق خوفاً من أن يشاع عنه الخطأ بين الناس فيستحقر، كان من الذين شنع الله عليهم بقوله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ النساء ١٠٨، ومثل هذا عند العلماء بالله تعالى أدنى من الجهلاء، لأن هذا من أكبر أمراض المنافقين، ولو أن مدعى العلم صدق الله تعالى فيما أخبرنا به من يوم القيامة ومن الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى، ومن أن الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار، لذاب قلبه خشية من الله تعالى أن يرضى الناس ويغضبه، وأن يخشى الناس ولا يخشاه، وأن يحب المنزلة عند الناس بسقوطه من عين الله تعالى. أعوذ بالله من الذنوب التى تغير النعم ومن الذنوب التى توجب النقم، وأعوذ بالله من الذنوب التى تهتك الحرم، ومن الذنوب التى تديل الأعداء، ومن الذنوب التى تحبس غيث السماء.

❖ ومن أمراضهم تأويل الأحكام بما يناسب هوى الخلق، والعمل بالرخص لجلب

الأموال وميل القلوب إليهم، خصوصاً فيما يتعلق بالطلاق والميراث والمعاملات، فترى الرجل منهم يفتى بغير ما أنزل الله تعالى، اجتراء على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ليكتسب مالاً أو شهرة أو منزلة فى قلوب الأمراء. وقد ضُرب مالك بن أنس وأهين ليفتى أن طلاق المكره يقع عليه فأبى، وضُرب أبو حنيفة رحمه الله تعالى لتولى القضاء فأبى، وكان الرجل يسأل أحد الصحابة عن المسألة المعلومة لأقل صحابى فيرده إلى غيره حتى يرجع إلى المسئول الأول، لأنهم رضى الله عنهم يعلمون الناس بقول (لا أدرى) حتى يقتدى بهم من بعدهم، وكان إذا سئل أحدهم عن الفتيا يرد السائل إلى الأمير ليكون خاملاً بين الناس، وإنما يتعلم العلم ليعمل الإنسان به فى نفسه حتى يكمل نفسه بالعلم والعمل، وهذا المرض داواه الله تعالى بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ المائدة ١٣، وهؤلاء هم الذين يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ متعمدين الكذب، قال ﷺ: (من كذب عَلَىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

ومن أفتى بحكم عالماً أنه برأيه وحظه ليس له مأخذ من كتاب الله ولا من سُنة رسول الله ﷺ ولا من سُنة الهداة المهتدين، فهو من المتعمدين الكذب على رسول الله ﷺ.

❖ ومن أمراضهم إهمال العناية بكتاب الله وبسُنة رسول الله ﷺ وبأئمة الهدى، وضياع الأنفاس النفيسة والأعمار الطويلة فى خدمة كتب أهل الجدل والمناظرة والفرق المختلفة من المتكلمين، مما يثير ثائرة الأخلاق ويفسد العقائد ويمزق الجماعة ويكثر الخلاف بين المسلمين، هذا الداء عضال جداً لأنه أذهب نور الإيمان من القلوب، ومحا لين الأعضاء لعبادة الله، فتراهم وتلاميذهم يمضون سواد الليل وبياض النهار فى فهم الأقيسة والنفى والإثبات والسلب والإيجاب، وجعلوا المواضيع التى يمرنون عليها نفوسهم صفات الله تعالى، كما يتمرن المتعلمون بحفظ أراجيز الجاهلية وقصائدهم، ليطبقوا عليها القواعد النحوية والصرفية، تقوية لاستقامة ألسنتهم حتى صارت العقائد الدينية كالمسائل الحسابية والهندسية التى تعطى للتلاميذ ليشحذوا بها قواهم الفكرية ضبطاً للقواعد.

أدى هذا المرض والعياذ بالله تعالى إلى سوء الأدب، فصار من السهل عندهم أن يوردوا

الاعتراضات على الصفات الإلهية، وعلى الكلام الإلهى، وعلى عمل القدرة الإلهية، ولا يصدر هذا الاعتراض والانتقاد من قلب فيه خشية لله تعالى، وتراهم مع هذا كله يجعلون هذا الجهل علماً وتلك البدع المضلة عملاً، ويقررونه فى المجتمعات أمام النشئ من طلبة العلم، حتى يملأ قلوبهم استهانة بكلام الله وكلام رسوله ﷺ وإنكاراً على آيات الله تعالى التى أجراها على أيدى رسله وأوليائه، حتى بلغ منهم سوء الأدب أن أحدهم إذا قال الله أو قال رسول الله ﷺ أو فلان الفلانى، قال له تكلم معى بالعقل، ومن أراد أن يظهر التقوى خوفاً على نفسه من تشنيع العامة أوَّل الآية أو الحديث إلى ما يلائم حظه وهواه، غير هياب من الله تعالى ولا وجل من لقاء الله.

وقد انتشر هذا المرض حتى عم أكثر طلبة العلم، إلا من عصمهم الله وقليل ما هم، وصارت تلك البدع المضلة هى السنة عندهم، وإن اختيار العلماء لرفعة شأنهم بين الأمة لا يكون إلا بإتقان تلك البدع، حتى كأن السنن الماضية للإسلام والمآخذ الحقة لأحكامه نسخت بأفكارهم، والله تعالى يقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الأحزاب ٤٠، ومعنى ذلك أن شريعته لا تنسخ أبداً، فمن ابتدع بدعة سيئة فى دين الله كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقد داوى الله هذا المرض العضال بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ الفرقان ٣٠، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ الإسراء ٤٥-٤٦.

كل مؤمن يعلم أن الرسول ﷺ معه، ولو كان فى القرن العشرين أو أكثر، لأن المراد من الرسول ﷺ الكتاب والسُنة، ومن استظهر على كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ فتلك الآيات تجره بذيلها إليها، فإن من خالف رسول الله ﷺ فى حياته المحمدية ومن خالفه بعد عشرين قرناً سواء عند الله تعالى، وإنما هى نفوس شريرة أعدت للضلال والإضلال أعاذنا الله من أهل الشر، وقد شنع الله بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون ٤.

النفس الزكية والإيمان والعصمة

رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الزمر ٣٣-٣٥.

المعجزات حجج على غير المؤمن، وسراج منير يقتبس منه المؤمن نور الأحوال المحمدية التى يجمل الله بها ورثته عليه وعليهم الصلاة والسلام. إن الله سبحانه وتعالى جعل رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها، فإذا زكى المسلم نفسه حتى بلغت مراتب كمالاتها النفسانية، تجملت جمال نشأتها الأولى، لأن النفوس من عالم الأمر، وإنما قهرها الله سبحانه وتعالى على ملابسة الأجسام، وهى مفارقة لها ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام ١٨، للحكمة العلية التى منها نيل كمالاتها بالأجسام ونيل الأجسام كمالاتها بالنفوس، ولله جل جلاله حكم اختص سبحانه بعلمها، إذا شاء أن يحيط عبداً من عباده بشئ منها تفضل عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ البقرة ٢٥٥.

النفس الزكية تقبل المأمور به وتترك المنهى عنه

نهى رسول الله ﷺ الصحابة فى ليلة من ليالى غزوة تبوك عن أن يخرج أحد منفرداً، وكان إذا نهى عن أمر تركه الصحابة رضوان الله عليهم بعزيمة، لكمال يقينهم أنه لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، فدعت الضرورة رجلاً لأن يخرج لقضاء حاجة الإنسان، وآخر لرد بعير له فر منه، فهبت ريح عاصفة فاختنق الأول واحتملت الثانى.

فى هذه الحادثة تنكشف لنا حقيقة لابُد من النظر فيها بعين العبرة، وهى أن الإنسان قد يؤمن بالأمر فيقبله موقناً، وتعتريه دواع تجعله يترك العمل به، وقد ينهى عن عمل فيتركه موقناً، وتعتريه دواع تجعله يعمله بلا روية، فيحصل من ذلك ما لا يحمد فى الدنيا والآخرة،

فعلى المؤمن الكامل أن يتروى فى كل حادثة تنزل به حتى لا يترك عملاً أُمر به، ولا يعمل ما نهى عنه مهما قضت عليه الضرورة، وذلك شأن المستبصرين المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١. ولما كان عمل الصحابيين بما نهى عنه رسول الله ﷺ لم يكن لمخالفة ولكن لضرورة أنجاهما الله تعالى، فشفى الله الأول بنظر رسول الله ﷺ، وسقط الآخر على جبال طيئ سالماً، فرده بنو طيئ على المدينة لرسول الله ﷺ، وهكذا كل مؤمن دعته الضرورة للوقوع فى محظور ناسياً أو مضطراً، فإن الله تعالى يمنحه الذكرى فيتوب إلى الله فيغفر الله له، وإنما العقوبة لمن فعل المنهى أو ترك المأمور به، انتهاكاً لحرمة الله غير مبال بعقوبته سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء ١١٠.

لكل جواد كبوة

إن تلازم الإيمان والعلم لا يقتضى العصمة، وإن المؤمن قد يخطئ، وما يقع فيه المؤمن من خطأ لا يجرده من الإسلام، فعندما يكون المرء وثيق الإيمان كثير الطاعات طويل المراقبة لله فإن أخطاءه تقل لا محالة، وما قد ينزلق إليه من سيئات يعتبر غريباً على حياته غرابة الشذوذ بالنسبة إلى القاعدة، وطبيعة الخطأ من رجل هذه حاله تجعل لسيئته صفة خاصة، فهو لا يقصدها ولا يستريح إليها ولا يستقر عليها، كالسائر فى طريق ما إلى هدفه لا يفكر إلا فى أعماله وآماله، فإذا بقدمه تخبط فى حفرة غير منظورة أو تمر بقشرة فاكهة ملقاة، فإذا بالمسكين يهتز ويضطرب ويهوى إلى الأرض، فإنه يخجل من سقطته ويقوم منها شديد الضيق والسخط.

كذلك قد تزل قدم المؤمن وهو سائر إلى الله، فَيَلِم بعمل لا ينبغى منه، ثم لا يكاد يتورط فيه حتى ينزع عنه وهو بادى الألم عميق الحسرة.

هذه السيئات لا تصم سيرة المؤمن ولا تهدم شخصيته، وهى من قبيل (لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة).

آثار خليقة الإنسان المزدوجة

ولما كانت خليقة الإنسان مزدوجة، يلتقى فيها عنصران، أحدهما من السماء والآخر من الأرض، فإن آثار هذا الاختلاط تبدو فى سلوك الإنسان وليس يستغرب على طبيعته أن يخلد إلى الأرض فى لحظة ما، ومن ثم جعل الله سبحانه وتعالى دائرة عفوه تتسع لهذه السقطات: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ النجم ٣٢، وعلل هذا العفو الكريم بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ النجم ٣٢.

على أن هذه المزالق التى قد تعترى الإنسان وهو فى طريقه إلى ربه، يؤدى واجبه ويقيم حقوقه ويتحرى رضوانه، وما يصاحب هذا اللمم من ألم وما يسبقه من غفلة، وما يعقبه من دهشة ويقظة ومتاب، ذلك كله يكشف سواده ويخفف عواقبه، وحسب صاحبه من عقاب دوى هذه السقطات فى نفسه، إشراعه بالإنابة إلى الله يجأر بالدعاء، وفى مثل هذه الحالات يساق قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الزمر ٣٣-٣٥، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت ٧.

إن العناصر مجمع الأضداد ... يخفى الظلام بها دوام جهاد
يا هيكلى فيك العناصر جمعت ... منك النجاة بنعمة الإرشاد
إبليس ما إبليس إلا شعلة ... فى هيكلى تخفى عن الأفراد
نفسى وشيطانى وحظى والهوى ... قد جمعت للحرب والإيقاد
والقادر المعطى الحكيم هو الذى ... يهدى العناصر وهو رب هاد
بغريب حكمته يزكيها بما ... يوليه من رشدٍ ومن إسعاد
مولاى فاجذبنى إليك مؤيداً ... بالروح منك بواسع الإمداد
مولاى وفقنى لما ترضى امنحن ... حب الولاية حققن إيجادى
حتى يكون العبد مجذوباً إلى ... مجلى الكمال بصحة الإيراد

مولاى قد جملت خلقى جملن ... أخلاق عبدك منك للآباد
حق اليقين اجعله نوراً ساطعاً ... أدخل عبيدك فى مقول﴿ عِبَادِى ﴾
أنت الولى تولنى بعناية ... حتى أفوز بروضة الأفراد
وسع عطايا العلم والحسنى والهدى ... والخير للأشباح خير الزاد
عممه للأولاد والأحباب من ... وفوا العهود وهبه للقصاد
فى مصر فامنحنا الذى عودتنا ... حتى ننال بها جمال جواد
يسر لنا كل الأمور بوسعةٍ ... مولاى أوصلنا إلى الأجداد
وإليك قربنا بجذبة قادرٍ ... أعط الكرام أئمة الأمجاد
اجمع بنا أهل الصفا بالاصطفا ... وافتح كنوز الخير للأولاد
وعلى الحبيب صلاة ذاتك ربنا ... وعلى جميع الصحب والوراد

حكمة فتح مصاريع التوبة على كثرة العثار

المعنيون بتربية النفوس وتزكية السرائر لا يحبون أن يقفوا طويلاً عند هذه العثرات العارضة، وهمهم أن يأخذوا بيد الكابى لكى يستطيع النهوض ويستأنف المسير، ويقبل على واجباته بنشاطه القديم أو أشد رغبة، وتهوينهم من هذه السيئات المقترفة لا لأن هذه السيئات تافهة أو مُستحسنة، بل ليخلصوا المذنب من آثارها ويفكوه من أسرها، ويمنعوه من الارتكاس فيها والانكباب عليها، وذلك أخطر ما يتوقع وأول ما يحاذر الشرع منه، وفى مثل هذه الحالات يساق قول النبى فيما يحكى عن ربه عز وجل، قال ﷺ: (أذنب عبدى فقال: اللهم اغفر لى ذنبى، فقال الله عز وجل: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك).

هذا الحديث وأمثاله مما يفتح مصاريع التوبة على كثرة العثار، إن المراد منه حفز الهمم إلى العمل الصالح والتقصى عن دائرة الجريمة مهما حدث من الإنسان، ورفع أنظار البشر إلى أعلى كلما نكسها الشيطان، وليس المراد منه ما يفهمه سفهاء العامة من تحقير الجرائم وتهوين السيئات وإغراء العصاة بالجرأة على المخالفات واستباحة الحرمات، فهذا المعنى نقض لحقيقة الرسالة الهادية، وتجاهل وقح لآلاف الأحاديث المرهبة عن ارتكاب الذنوب والتفريط فى الأعمال الصالحة، بناء على فهم معوج لهذه الأحاديث وهو ضلال مبين.

وليست الخطايا كلها من هذا القبيل، ولا الذين يقعون فيها جميعاً من هذا الصنف.

رباط العاصى بالإيمان واه

هناك حالات من النزق والسفاهة تغوى ذويها بارتكاب الدنايا، وقد لا ينزعون منها على عجل، على أن الإيمان فى نفوس هؤلاء يعانى لا ريب أزمات عنيفة، وبقاؤه أو انتهاؤه مرهون بمدى ما يصل إليه العاصى من بعد عن الله واستمراء للخطايا، ومهما عصى المسلم فهو بين توبة سريعة تطهره أو توبة مضمرة يستنيم إليها، ويرتبط بالإسلام على أساسها، ومصائر أولئك الذين يتدنسون بالمعاصى، ويرجئون المتاب منها مع الإحساس بالخزى وتوقع العقاب مجهولة، لأن إلحاح المعاصى على القلب قد يُزهق الإيمان، ويرد المسلم إلى الكفران، كما يلح المرض الخبيث على الجسم، فينزع منه الروح ويتركه جثة بالية، وأياً ما كان الأمر فإن رباط العاصى بالإيمان واه.

الإيمان فى العاصى باقٍ إلا إذا

ونستطيع أن نقول إن الإيمان فى العاصى باق، إلا يوم أن يقترف الجريمة متفاخراً أو يترك الفريضة مستهزئاً، فإنه يومئذٍ ينسلخ عن الإسلام ويحكم بارتداده، وليس يتصور فى مؤمن هذا. فإن المؤمن إذ لم يكن ذا عزيمة فى الخير، فلن يكون ذا عزيمة فى الشر، تجعله يبارز بالمعصية وهو وقح صفيق، وقد بين الله فى كتابه المعصية التى تقع من الموسومين بالإيمان إنما تصدر عن جهالة، أى عن طيش وضعف وغلبة وشهوة وضعة همة، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ

يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ ﴾ النساء ١٧-١٨، ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ الأنعام ٥٤-٥٥.

❊ ❊ ❊

الباب الخامس

تربية النفس قبل الدرس

الإنسان يختلف عن الإنسان بحسب النفوس

الإنسان من حيث هو إنسان قابل لما يزاوله من صناعات أو فنون أو علوم تتعلق بالأحكام الشرعية، أو بتربية النفوس وسياسة المجتمعات وغيرها من العلوم، ولكن الإنسان يختلف عن الإنسان بحسب النفوس.

فكم من محصل نال من العلوم ما لو قسم على كثير من الناس لوسعهم، وهو شر على المسلمين من الشيطان وأضر عليهم من الوحوش، ذلك لأن نفسه خبيثة من أكثف الجواهر النفسانية.

وكم من إنسان تحصل على قليل من الضرورى، ولكنه فوق الملك الروحانى قدراً، بل وأنفع للمجتمع من الشمس المشرقة على الناس ضحوة، ذلك لأن نفسه من أصفى جواهر النفوس، لذلك كان أهل الإيمان لا ينظرون إلى علم الرجل وماله وقوته وعافيته، بل ينظرون إلى أعماله ورعايته للعلم الذى تعلمه، وخشيته من الله تعالى، ولو أن الدروس والعلوم ترفع قدر الرجل عند الله تعالى لكان أرفع الناس إبليس، وإذا أراد الله سعادة الأمم شرح صدور أهل النفوس الطيبة للعلم، فجمع الله لهم بين الجمالين: جمال النفس وجمال

الدرس. ورجل واحد صاغ الله نفسه من أصفى جواهر النفوس، وعَلمهُ العلم النافع أنفع للمسلمين من الماء الجارى ومن الهواء، لذلك كان أشد الناس عداوة للرسل أكابر مجرمى الأمم من علماء السوء، فمنهم الذين حرفوا كلام الله تعالى عن مواضعه.

جواهر النفوس

لا تنظروا إلى ما حصلوا من الدروس ولكن انظروا إلى جواهر النفوس، فإن الأمطار إذا هطلت على الأرض السبخة النتنة أفسدت الماء، وإذا نزلت على الأرض الخصبة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كذلك العلم، فنحن أحوج إلى تربية النفوس قبل الدروس وإلى تهذيب الأخلاق بمحو الشقاق، وكيف لا... وإنا نرى فى زماننا هذا أكثر من يحصلون العلم يسارعون إلى تحصيل ما لا ينفع فى الدنيا ولا فى الآخرة، ويتقربون إلى من لا خلاق لهم بما هو غريب، فينبشون القبور ليخرجوا منها أباطيل اليونان وأضاليل الرومان وأوهام الفرس وشعبذة البابليين، ليشغلوا المجتمع عما كلفهم الله، ويوقعوا الناس فى الشكوك والريب، وما أولئك بالعلماء.

فليس العالم من فقه لسانه وجهل قلبه، فإن العلم ليس هو إعراب اللسان إنما هو إعراب القلب، ودلائل إعراب القلب إصابة الحق عند الشبهات، والقيام لله عند الشدائد ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، وليس كل عالم يكون قواماً لله إلا إذا كانت نفسه من أنفس جواهر النفوس ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص ٢٤، ولا يخلو كل زمان من وجود رجال منحهم الله تعالى اليقين الحق الذى به لا تأخذهم فى الله لومة لائم، وكل الصحابة رضوان الله عليهم مكنهم الله فى هذا المقام العلى، وأكثر التابعين ومن بعدهم، ولكن انفرد منهم رجال بلغوا المقام الأعلى، ومن قرأ تراجم الصحابة مثل سيدنا بلال وصهيب وسيدنا سلمان الفارسى وأبو رافع وهم من الموالى، يعلم مقدار جواهر نفوسهم، فكيف بسادات العرب وأئمة بنى هاشم وقريش من الصحابة؟! وإنا فى عصرنا هذا لنرى رجالاً حصلوا الدروس ولم يمنحوا النفوس، يسعون فى الأرض فساداً بدروسهم، فتراهم أتباع كل ناعق وخدم لكل ذى سلطان، يفتحون أبواب الشُبَه ويجددون أوهام من أضلهم الله وأعماهم، وجمع لهم بين عمى

البصيرة والبصر، وهم علماء الدنيا الجهلاء بالآخرة، وهم كثير الآن ينشرون فلسفة اليونان التى هى نتيجة ظلمة الكفر بالله، وكيف لا... والإنسان مهما كمل عقله وصح جسمه لا يعلم ما وراء الجدار، فكيف يعلم الغيب المصون بالحيرة والجنون!

يفتح الرجل منهم القبور لينشر الشرور، ولو أنه قرأ القرآن متدبراً، وكلام رسول الله ﷺ معتبراً، واطلع على حكم أئمة المسلمين وأهل التقوى منهم لميز بين الخبيث والطيب. وإنا والحمد لله لا تغرنا أساطيرهم، وقد أغنانا الله تعالى بكتابه المجيد، ويا ليت هؤلاء القوم وقفوا عند ما اختلقه أهل الكفر بالله، ولكنهم يحبذون آراء أهل السلطة والقوة، ولو كان فيها محو الحق وأهله، ولولا إنا نكره ذكر أمثال هؤلاء لسودنا الصحف بأقوالهم، ولو نظرنا إلى من منَّ الله بهم على المجتمع فى هذا الزمان، لتحققنا بعظيم نعمة الله علينا، ولا أبعد بك أيها المطالع فإنك ترى بين ظهرانينا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقاموا لله ولرسوله ﷺ وللأوطان بعزيمة وإخلاص.

الرجوع إلى الحق وأهله

نذكر الذين نبغوا فى غير العلوم الدينية ممن ينتسبون إلى العلم وأهله أن يتداركوا ما فات بالرجوع إلى الحق وأهله، والعمل بما كان عليه السلف الصالح حتى يكونوا نوراً لجماعة المسلمين، فيقوموا لله كما قام إخوانهم، وليحذروا سرعة انتقام القهار سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد ١١، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ الأنعام ٤٤، وليراقبوا الله فيما خولهم من العلم والشهرة، وليجاهدوا أنفسهم فى ذات الله تعالى، حتى ينالوا شفاعة رسول الله ﷺ يوم لا ينفع مال ولا بنون، وليتدبروا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر ٢٨.

وكيف لا وسقطة الرجل منهم زلة للمجتمع، لأن العالم الإسلامى ينظر إليهم نظر التقليد قال ﷺ: (من أحب قوماً حُشر معهم)، وحب أهل الكفر بالله وموالاتهم برهان على سخط الله وغضبه، وللجهلاء المسارعين فيهم عذر، وما عذر العلماء؟! حفظنا الله وإياهم من الفتن المضلة، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة ١.

على أننى قدمت لك أن المعتبر النَفْس لا الدرس، ولكن النصيحة من الإيمان، وإنى أنصح إخوتى المسلمين أن يمقتوا كل عالم يعمل بغير علمه ليعلمه الناس، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نَذكُر الفاجر بما فيه ليحذره الناس، أيقظ الله قلوب العلماء الغافلين عن الآخرة، وجعلهم أنصاراً لله ولرسوله ﷺ ولجماعة المسلمين، إنه على كل شئ قدير.

تزكية النفوس

تفاوتت النفوس وتباينت أنواعها وفاقت الحصر كثرة، وسلسلة ترتيبها من النفس الجمادية إلى النفس الملكية، إلى ما فوق ذلك من عوالم الروحانيات العاليات، حتى لا تكاد ترى ذرة من ذرات الوجود، من أعلاه إلى أسفله وما بين ذلك إلا وفيها نَفْس حية خلقت لحكمة، فلم تخل البحار من أنواع الحيوانات، بل ولا القفار ولا الغابات ولا طبقات الأرض، ولا مستوقد النار ولا الهواء، وبقدر تلك الأنواع أنواع الإنسان، فالنفوس الإنسانية مختلفة بقدر اختلاف كل العالم، فلا تحب أن ترى نفساً إبليسية أو أى نوع من أنواع نفوس الحيوانات إلا وجدته فى الإنسان.

فالإنسان أعجب العجب، ما دامت نفسه لم تزك؛ فهو كالسبع افتراساً وكالثعلب خديعة وكالثعبان مضرة وكالشيطان إفساداً، وكالثور عملاً وكالجمل حملاً وصبراً وكالشمس نوراً وكالملائكة بياناً، بل وهو مظهر لأنواع الجمال الإلهى من الحلم والعلم والكرم والعطف والود، أو لأنواع الجلال من القهر والانتقام والبطش.

وتزكية النفس طهارتها من مقتضيات تلك الأنواع ليكون الإنسان وسطاً يعمل أعماله كلها مراقباً الله تعالى لا كما تعمل الحيوانات، فيأكل ليعيش قائماً بما عليه من حقوق العبادة شاكراً الله على توفيقه وعنايته، ويغضب لله غيرة للحق لا كما تغضب الحيوانات، ويحصل العلم ليصل به تقرباً إلى المعلوم سبحانه، حتى تصدر كل أعماله عن حسن النية وإخلاص الطوية، ليكون حاضراً مع الله دائماً.

* * *

وسائل تزكية النفوس

المحافظة على الأحكام الشرعية أدباً لله تعالى واتباعاً لرسوله ﷺ، ثم تحصيل العلم النافع من فهم حكمة أحكام الله تعالى، وفهم آياته من كل شئ، حتى تعتاد النفس على العبرة والفكرة، وينشط الجسم للقيام بمحاب الله ومراضيه، ثم يلحظ معانى أسماء الله تعالى، مشاهداً صفاته العلية، مشرقة أنوارها على العالم كله، فيرى قادراً قوياً يُعصى ويُخالف من ذليل ضعيف، فيعطى سبحانه ويصبر ويحلم، ثم يتوب عليه ويغفر له ويبدل سيئاته بحسنات، فيعشق تلك الصفات، ويستحى أن يعامل عباده بغير صفاته سبحانه، ثم تتضح له الحقائق فيعلم أن العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات التى يحبها الله تعالى هى ما كان عليه رسول الله ﷺ، فيسارع إلى التشبه به ﷺ ليكون محبوباً لله، فائزاً برضوانه الأكبر، ويكون ناجياً يوم القيامة، ثم يكشف له الحجاب عن سر بدئه ونهايته، وغيب تطوره من عدم إلى وجود، ومن ماء مهين إلى أن يصير بالغاً رشده، فيذوق حلاوة التوحيد ويشرب من ظهر التنزيه والتفريد، لديها تزكو نفسه قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المؤمنون ١، ومن بلغ تلك الدرجة كان صورة كاملة لرسول الله ﷺ، يسعد به العالم أجمع، لأنه محل نظر الله.

والإنسان الذى لم يزك نفسه بل دساها فكان فى التفرقة والفساد كالشيطان وفى المضرة كالوحوش وفى الشهوة كالبهائم، فهو أضر على المسلمين من الشياطين المفسدة ومن الوحوش الكاسرة ومن البهائم الضارة، وشتان بين من ظاهره إنسان ومن ظاهره إنسان وحقيقته روح ملكية طاهرة زكية، ينتفع العالم أجمع بعمله وعلمه وحاله ومآله، لأنه يضئ لأهل السماوات كما تضئ الشمس لأهل الأرض.

سعادة الأمة بمن زكت نفوسهم

نعم سعادة الأمة بمن زكت نفوسهم، لا بمن بخسوها واستخدموها لنيل الرياسات وتحصيل الفانيات، وإن الأمة لفى حاجة إلى من زكت نفسه أكثر من احتياجها إلى من قَوَّى عقله، فاخترع وابتدع ورقى وارتفع، وكم أهلكت أمم بانقيادها لجرئ قوى القلب محب للشهوة والسيادة، فانقادت له مسارعة إلى نصرته فشغلها بما لا يعنيها، وجعلها شيعاً

وأحزاباً، فخسرت التعاون بين أفرادها وحرمت الإقبال على ربها، وفقدت الاتحاد الذى به الظفر بالقصود كلها. كل ذلك لاقتدائها بمن لم تتزك نفسه.

ولا يخفى على أهل العقل ممن زكت نفسه، أن كمال تزكية النفوس ينتج محبة الله تعالى، والمسارعة إلى عمل الخير، وتحصيل الخير لكل المسلمين، والخشية من الله تعالى، والرحمة بكل ذى كبد رطبة، وإيثار المسلمين على نفسه، وبغض ما يفنى مما يعاقب عليه يوم القيامة، وحب ما يبقى مما ينال به الخير الحقيقى.

وكم من ظاهر مشهور بين العالم، وهو يهوى بهم فى الدرك الأسفل من النار، وكم من باطن مستور به نجاة العالم أجمع فى الدنيا والآخرة.

وأساس السعادة فى الدنيا والآخرة الأخلاق، فالعمل بالعلم. ومتى فقدت الأمة الأخلاق الفاضلة، صارت كالبهائم السافلة، وذلت للظلمة الفاجرين والخسرة الكافرين. قال الله تعالى مثنياً على من زكت نفوسهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الحج ٤١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ النور ٥٥.

وإنا والحمد لله إنما سعدنا أولاً بما تفضل الله به علينا من تزكية نفوسنا، وبالعمل بما جاءنا به رسول الله ﷺ، وإن هذا المجد والمُلك العظيم إنما نناله بالرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح اقتداء برسول الله ﷺ. وهذا الخير إنما يتحقق بالبحث عمن زكت نفوسهم، وجملهم الله بالعلم النافع والعمل المقبول فنأتم بهم، ونجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر حتى تزكوا، فنغار لله غيرة يكون بها معنا ولنا، ولديها يتحقق قوله ﷺ: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء).

وقد ظهر سر هذا الحديث فى هذا الزمان، فإن الإسلام بدأ برسول الله ﷺ منفرداً بين جهالة الجاهلين وظلم الكافرين، وقوة سلطان اليهود والنصارى، فأظهره الله وأيده، ونشر

دينه بقوته سبحانه وتأييده، وقد صرنا الآن والقوة فى يد أعدائنا فجاسوا خلال ديارنا، وطعنوا فى ديننا، وأصبحنا لا نجد على الحق نصيراً، فصرنا غرباء، فطوبى لنا فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فبنصرة الله لنا، وإعلاء كلمته على يدنا بمعونته، واجتماعنا بعد التفرقة والائتلاف بعد الاختلاف، والغيرة لله بعد الخوف من الخلق.

العلم والمال

إنما الزهد أن تعمل فى الدنيا للآخرة، وأن تجمع المال من وجهه الشرعية لتكسب به رضوان الله ودعاء الفقراء.

والزهد إيثار الحق على نفسك فى كل شئ، وإن الناس قد جهلوا كيف ينتفعون بالعلم وبالمال، فاطلب العلم لتعمل، واطلب المال لتنفع غيرك، فتنتفع فى الدنيا والآخرة.

وأزهد الناس بعد رسول الله ﷺ خليفته أبو بكر، وكان يسافر إلى الشام فى التجارة فيغيب عن رسول الله ﷺ الشهور الطوال، ثم سيدنا عثمان بن عفان وهو الذى جهز جيش العسرة بعشرات الألوف من الدنانير. فاحرص على مالك وسارع فى تنميته لتكون كنزاً من كنوز الله تعالى لإخوتك المسلمين، واحفظ أنفاسك، فابخل بها أن تصرفها فى غير طلب العلم والعمل به، لتكون أسعد الناس يوم القيامة.

العلم يكشف جوهر النفس

العلم والعافية والمال ونفوذ الكلمة تظهر حقيقة جوهر النَفْس، وزاد بعضهم على تلك الأنواع الخمرة. وأقواها فى التأثير على كشف حقائق النفوس العلم، فإذا كانت النفس من النفوس الروحانية النورانية وتكملت بالعلوم، أشرقت أنوارها فعمت العالم نفعاً، وإذا كانت من أخس جواهر النفوس وأردأها وحصلت العلوم، كانت آلة لانتشار الرذائل وإفساد العقائد والأخلاق. وفوق العلم فى هذا الشهود. ولا تعجب أيها المطالع فإنك تعلم حقيقة

نفس إبليس، وما كان عليه من العلم والكشف والقرب والولاية. كان رئيس خزانة الجنة وملكاً مُتصرفاً فى سماء الدنيا والأرض وطاووساً للملائكة، قرب قُرباً حتى تكلم مع ربه وتحقق أنه مع الرب، وقام بأعمال لم تقم بها الملائكة، فكان العلم والشهود مع النفس الخبيثة سببين للعن والطرد.

انظر إلى النفس وكمالاتها لا إلى العلم والنبوغ فيه، فكم من عالم هو أضر على المجتمع الإسلامى من الشيطان، وكم من ممنوح الكشف نازع الربوبية وادعاها، فكان العلم والكشف لرداءة جوهر نفسه موجبين لبعده وطرده، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ الأعراف ١٧٥.

من هو العالم حقاً؟ هو من يخشى الله تعالى ويعظمه، من أن يرتكب ما يغضب الله تعالى فيكون مهيناً لله بمخالفة حكمه. العالم من عرف نفسه وعرف ربه، فعظمت عليه نفسه من أن تذل لغير الله أو تخالف حكم الله. وعالم يتهاون بحقوق الله تعالى ويتساهل فيما أوجبه عليه، ويذل نفسه لعظيم أو كبير لنيل فانٍ لا ينفعه هو أجهل الجاهلين، وإن حصل علوم الأولين والآخرين، فهو كجراب من جلد خنزير حشى مسكاً، فلم يطهر ما فى جوف حقيقته التى هى عين النجاسة.

العالم من تصور رسوم المعلوم، فعلم زوال الدنيا وبقاء الآخرة، وتحقق الموت فى كل نَفَس ففر من الدنيا وهو فيها، وغار لله ولرسوله ﷺ غيرة من عظم عليه إهمال السُنة، فلم تأخذه فى الله لومة لائم. يقول الجهلاء: فلان عالم، وهو عند الله تعالى جاهل بعيد، لأن العالم من عمل بعلمه لا من استعان بالعلم على معصية الله وغضبه. ما للعالم والدنيا وأهلها والموت لا يغيب عنه نفساً!

أخلاق العلماء

عزة بالله على أهل المعاصى، وهجر فى الله لأهل البدع المتساهلين، وتباعد عن الشُبَه، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وصولة بالحق ولو على عظماء الدنيا، وبيان لما خفى على

الناس من أحكام الله، ونصيحة للخاصة والعامة بإخلاص لله، وتأييد لأهل الحق وإن كانوا ضعفاء، وإنكار على أهل الباطل وإن كانوا أقوياء، وزهد فى الدنيا وزينتها، وبعد عن الملوك والأمراء. والملوك والأمراء أولى أن يقفوا على أبواب العلماء، لأن عند العلماء ما الملوك فى حاجة إليه، والعلماء أغنياء عما عند الملوك.

والواجب على كل مسلم أن يتبصر فى الأمر قبل الحكم، وأن يُنزل الناس بقدر تيقظهم لأحكام الله وآدابه، لا بقدر علومهم وجاههم ومالهم، قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وكيف نحكم على رجل بالعلم يهين العلم ومحله بمخالفة الله والطمع فى الدنيا والوقوف على أبواب الأمراء، قال رسول الله ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء).

والأنبياء لم يتركوا لورثتهم مالاً ولا جاهاً ولا مُلكاً، وإنما تركوا لهم علماً ونوراً وهدى وحُباً فى الله وشوقاً إليه سبحانه، وزهداً فى الدنيا ورغبة فيما عند الله تعالى، فمن فقد هذا الميراث وادعى أنه عالم فهو كاذب، ومن حَكَمَ له بالعلم فهو أحد الكذابين، إنما العلم خشية فى القلوب من الله تعالى، ومسارعة بالأعضاء إلى محابه ومراضيه، وتنزيه الله تعالى عن أن يكون له نظير ينفع أو يضر، والنظر إلى العالم أجمع بعين ترى بأن الجميع مضطرون مفتقرون إلى الله تعالى، ليس فيهم عظيم ولا كبير إلا من عظمهم الله تعالى وأثنى عليهم، ومن لم يجمله العلم بالتقوى فعلمه جهل، والعالم الذى يعتقد أن الله يراه وأنه سيقف بين يديه غداً وأنه ستنكشف الستائر، كيف يغضب الله بمخالفة العلم وبالعمل بغير مقتضاه!

يحكم الناس أن فلاناً عالم، وهو أشره من البهائم وأطمع من النمل، وأحرص من الجاهل، يعظم أهل المال ولو كانوا عصاة وأهل الجاه ولو كانوا فسقة، ويجل أهل المنزلة ولو كانوا ظلمة، ويحقر الفقراء ولو كانوا أولياء الله تعالى، ويستهين بالمساكين ولو كانوا أتقياء، فهو عزيز على الفقراء ذليل على غيرهم، هل هذا عالم عند الله ورسوله ﷺ وعند العلماء الربانيين! لا والله... فتنبه أيها المغرور قبل هجوم الموت حيث لا ينفع الندم، واعتقد أن الله تعالى غيور على العلم، فلا تجعله حُجة عليك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء ٨٨-٨٩، وبادر قبل الفوات وخصوصاً إذا نزل نذير الموت.

شرابان رشف مدامة الأخلاق   وراح الصفا من حضرة الخلاق
فراح الصفا خمر من القدس نولت   لمن شاهدوا الأنوار فى الآفاق
أحاط بهم وجه على منزه   ففروا إلى الخلاق بالأشواق
وخمرة آداب السلوك طهورة   تدار بلا مزج على العشاق
أديرت عليهم من لدى البدء جملت   معالمهم بشرى لفرد راق
صفاهم له بدءاً فجملهم بما   به جذبوا بالذوق والإشفاق
بأخلاقه العليا الكريمة جملوا   فصاروا همو الأبدال بعد محاق
يقربهم وهو القريب لأنهم   همو صفوة الرحمن والرزاق
وأهل الصفا القدسى ذاقوا مدامةً   من البدء نالوا القرب لا بفراق
رأوا وجهه يجلى لهم فى نزاهة   ففروا به شوقاً بغير مراق
مدامة أهل الحب رؤية وجه من   تعالى عن الإدراك بالأحداق
تجلى لهم بدءاً رأوه تنزلاً   رأوه بعين الحق لا الأحداق
تراءى لهم بدءاً فهاموا تألها   بجاذب وجد فى لظى الإحراق
فلم يأنسوا إلا بنور جماله   فلم تلههم نعماه بالإغداق
إليه به فروا لنيل اتحادهم   وأهل الصفا القدسى خير رفاق
همو الأمنا الأبدال صفوة ربنا   لقد فارقوا الملكوت بالإغراق
صفاهم له بدءاً فهاموا بحبه   وغابوا به عنهم بغير تلاق
نعم ألهوا بدءاً وفى الكون ووجهوا   فحنوا إلى بدء الصفا الإشراق
إلى الله جل جلاله قد تألهت   بسابقة الحسنى من الخلاق
وهل لى مراد بعد أنى مراده   فروحى سكرى من رحيق دهاق
أتوق ونور الوجه حولى يحيط بى   ولا صبر يحلو للفتى التواق
وهل يصبر المشتاق عن وصل حبه   وأنواره تمحو صوى الآفاق؟!

حنينى إلى المجلى وشوقى إلى الصفا ومن نشأتى شوقى ومن ميثاقى
رأيت الجميل الحق بدءاً بلا خفاً وفى عهد يوم ﴿ أَلَسْتُ﴾ كان الساقى
سقانى طهوراً أله الروح جذبة تألهت من عهدى لنور الباقى

الباب السادس

الإرادة والعمل والخلق والتخلق والأخلاق

الإرادة والعمل

معلوم أن الإرادة إذا أُطلقت إنما يراد بها اختيار ما هو خير فى الحقيقة، ومتى تعين المقصد بالاختيار جُذب الإنسان بكليته إلى نيل مقصوده كائناً ما كان، وذلك لأن الإنسان لا يختار مقصداً من المقاصد إلا بعد أن يتحقق أنه له، ويعد الوسائل لنيله، ومتى توفرت تلك الأسباب عظم لديه المقصد، وصغر فى عينه كل ما سواه من مال وحياة ومنصب وجاه، وهذا أمر بديهى لا يختلف فيه اثنان، ومثاله: أن المسلم إذا تحقق فناء الدنيا وبقاء الآخرة، وأنه يمكنه نيل الدرجات العُلى إذا هو اختار الآخرة على الدنيا، صغرت الدنيا فى عينه وعظمت الآخرة، فإذا عارضته الدنيا عاداها، وفر منها حتى يبلغ قصده أو يموت دون ذلك، وكم من ملك عظيم انكشفت له الدنيا ففر من المُلك الحقير إلى الملك الكبير، بل وكم من غنى فر إلى الله من ماله وجاهه وأهله، بعد أن اختاره سبحانه. والإرادة خمرة تنوع الأفكار وتقرب الآمال وتسهل على المريد الأعمال، وما هى إلا إرادة تدفع إلى العمل فينال الأمل، ومتى سكرت النفوس بخمرة الإرادة أبت العاصفة، باذلاً نفسه ونفائسه لنيل ما اختاره بعد تصور نفعه وخيره، بعد ما يتخيل له أن حياته بغيره شر من الموت.

وسائل الإرادة

تحصيل العلم الذى تتضح به حقائق المقصد والوسيلة، وانكشاف ما غاب عنه من الخير الحقيقى، والمجد الذى يفوز به بنيل ما أراده، حتى تتمثل له تلك الملاذ والمسرات فى فقدها، ويتمثل له ما هو فيه، فيكره الحياة ويبذلها لتحصيل مراده. قال سيدنا أبو بكر ﷺ لأمير المؤمنين عمر ﷺ: مُت تحيا. ومراده – والله أعلم بمراده – أى: تجرد من حظوظك ومقتضى بشريتك، مسارعة إلى إعلاء كلمة الله وإحياء سنن رسول الله ﷺ، باذلاً نفسك فى نيل رضاء الله ورسوله ﷺ، تحيا وجيهاً فى الدنيا والآخرة فى جوار رسول الله ﷺ، ولا يجمع الإنسان بين نيل مراده وحفظ حياته وماله، اللهم إلا ما لابد منه عند الاضطرار إليه، من طعام وشراب ولباس ونوم، فإنه مما لا يتنزه عنه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وإنا لنرى الدجاجة إذا أرادت حفظ فراخها، تهجم على السبع وهى أجبن الطيور وأخوفها من القط، ذلك لأنها أرادات اختيار المدافعة عما هو لها، مع أنا نراها منفردة تفر من أضعف حيوان، ولكنها ثبتت ثبوت الشجاع المقدام لنيل قصدها بعد الإرادة، وهذا المقصد ليس مما يليق بالدجاج، بل الإرادة تقهر النفوس على ارتكاب الصعب من الأمور مع علمها به، فإذا ظهر للقلب نور الحق، فبين له ما هنالك من المقصد العظيم، اضمحلت الدنيا فى عينه.

كيف يُنال المقصد؟

القصود تتفاوت، فمن طلب الله فر مما سواه، ومن طلب الآخرة زهد فى الدنيا، وفى كل هذه القصود يجب أن تتحد كل الجوارح على نيل المقصد.

طريق نيل الأمة مرادها

الأمة الحية تمثل الجسد الواحد، وكما قررنا أن الجسد لا ينال قصده إلا إذا اتحدت جميع الجوارح على نيله، فإذا أقبل على الله ونازعته بطنه فالتفت إلى نيل شهوتها التفت عن الله، وإذا طلب الآخرة ونازعته الدنيا بزخرفها والتفت إليها حُرم الآخرة.

والأمة هى كالجسد الواحد متى تبين لها طريق المجد والعز، قام كل فرد من الأفراد عاملاً

لمجموع الأمة كعمل كل عضو للجسد، متحدين اتحاد الجوارح فى خدمة الجسد، فإذا كان هذا المجد والعز لها واغتُصب منها، كان هبوبها أشد من لهيب النار واتحادها أقوى من تماسك الفولاذ، ما لم يتبتل أفرادها بمحبة الذات، وتقديم النفع الخاص على العام، فإذا عولجت واتحدت سلكت سبل الحق، بصحة الجسد من الأمراض، واتحاد الأفراد على هذا المقصد، والتحفظ من دسائس العدو الذى يسعى لتفرقتها، كما يتعين على السالك فى طريق الله أن يتحفظ من عدوه الشيطان الذى يريد تفرقة الأعضاء، ومطالبة كل عضو بما له، فيرد السالك عما هو مولٍ وجهه شطره، وللفرد فى سلوكه أدوية يعالج بها نفسه لتزكو، وللأمة أدوية تعالج بها الأفراد والجماعات، والله ولى المتقين.

الخُلق والتخلق

خُلق الإنسان مضطراً إلى التعاون

قال العربى:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

خلق الله كل الأنواع ويسر لها ضرورياتها وكمالياتها من غير احتياج إلى مساعد، فالفرد من أى نوع من أنواع الخلق يُسر له ما لابد له منه وأكثر، من غير أن يحتاج لغيره من أفراد نوعه، إلا الإنسان... فإن الله خلقه مضطراً إلى التعاون، حتى فى ضرورياته التى لا حياة له بدونها كالخبز. فلابد من المجتمع الذى يعيش فيه آمناً فى سربه معافى فى بدنه عنده قُوتَهُ. وهذا المجتمع لابد له من رابطة قوية تجعله كالجسد الواحد، وتلك الروابط كثيرة الأنواع منها تبادل المنفعة وتوحيد اللغة وانتشار العدل بينهم حتى تحصل المساواة والحرية. ورابط تلك الروابط كلها التى بها يكون الجسد حياً صحيحاً وأعضاؤه قوية عاملة بما يجب عليها، هو الدين، لأن الدين يجعل الأمة متحدة على عقيدة واحدة وعبادة حقة وأخلاق حسنة ومعاملة جميلة، مسارع كل فرد منها إلى التفضل على الغير، لينال أحسن الجزاء يوم القيامة، ولا سبيل إلى نيل الخير الحقيقى إلا بالخلق الحسن.

الخُلق

هو أثر تزكية النَفْس والرحمة والعفة والشجاعة والكرم والصبر والصدق والشكر وقوة الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والغيرة لكتاب الله ولسُنة رسول الله ﷺ، والعفو والسماح وغيرها من مكارم الأخلاق.

تزكية النفس

معلوم أن النفس قد تطلق ويراد بها الناطقة أو الحيوانية. وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر النفس بالثناء والمدح وبالذم والتشنيع، فمدحها بقوله: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الفجر ٢٧، وبقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ القيامة ١-٢، وشنع عليها بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يوسف ٥٣، وبقوله تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام ١١٢، وبقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ الناس ٤-٦، وكل تلك النفوس قُوى تَكون منها الإنسان، ففيه النفس المطمئنة وهى النفخة من روح الله تعالى، وفيه النفس الشيطانية وهى النار التى هى جزء منه، وفيه الحيوانية وهى الدم.

والتزكية مجاهدة تلك القوى حتى تقتدى بالنفس الناطقة الروحانية، ولا تكون المجاهدة حقة وتنتج هذا الخير، إلا باتباع سنة رسول الله ﷺ، ومن خالف سنة رسول الله ﷺ وقع فى الطمع والحرص والحسد، وهذه البلايا أساس أمراض المجتمع. والذين جملهم الله بالأخلاق الفاضلة حتى بلغوا مقام الفوز بمعية رسول الله ﷺ التى ذكرها الله فى آخر الفتح، أسعدهم الله ومكن لهم فى الأرض بالحق، وجمعهم على الحق وأذل لهم الأمم، وأسعدهم فى الآخرة فأحلهم مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهم السعداء فى الدنيا والآخرة، تخلقوا بأخلاق الله وعملوا بسنة رسول الله ﷺ، فأحبهم الله وأيدهم ودفع عنهم عدوهم، وطهرهم من فساد الأخلاق، ونفعهم ونفع بهم.

❊ ❊ ❊

التخلق

التخلق سببه اليقظة بعد طول الغفلة، ولليقظة أسباب منها البلايا التى تصيب المجتمع، بسبب مخالفة السنة، فيسلط عليه عدواً من غير دينه، يسلب منهم مُلكهم وآدابهم حتى يصبحوا أذلاء بعد العز وضعفاء بعد القوة، فتوقظهم الشدائد.

ومنها أن يقيم الله بينهم مرشداً أحيا الله قلبه وأطلق بالحكمة لسانه، ونشط للأعمال الصالحات جسمه وألقى عليه محبة منه، فذكرهم بما ناله سلفهم الصالح بالتمسك بالكتاب والسُنة، ونصحهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والذكرى تنفع المؤمنين.

ومن أسباب اليقظة فى مثل زماننا هذا، تأييد الله بنصره جماعة من المسلمين، تأييداً تتقوى به قلوب بقية المسلمين، فيجاهد المسلمون جميعاً أنفسهم أن تعود إلى الحق، وأن تعتصم بكتاب الله تعالى وسُنة رسول الله ﷺ، فيحن كل مسلم إلى التوبة والإنابة، آخذاً بالعزائم، وعاملاً بما كان عليه السلف الصالح. ولديها يتكون الجسد الإسلامى، ويظهر له أسباب تلك الأمراض، فيكره أسباب الأمراض بقدر ما يكره المرض.

فالتخلق تكلف النفس أن تتجرد من مقتضيات عناصرها، التى تدعوا إلى مخالفة الشريعة الغراء، طمعاً فيما يزول أو حرصاً على ما ينفع أو تودداً لمن لعنهم الله وغضب عليهم، أو موالاة لأهل الكفر بالله أو عقوقاً للوالدين، أو قطيعة للرحم أو أذية للوالدين. ومتى زكت النفس بالسجية أو بالتكلف، كان الله معنا ولنا سبحانه، وتحققنا بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ النور ٥٥.

الأخلاق

قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالساً يوم القيامة، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجالساً يوم القيامة، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الثرثارون المتفيهقون، الذين لا يألفون ولا يؤلفون. ألا أخبركم بشر من ذلكم، قالوا: بلى يا رسول الله قال ﷺ: من ضرب عبده ومنع رفده وأكل وحده)، جمع لنا هذا الحديث الشريف سعادة الدنيا والآخرة، فإن المحبوب لرسول الله ﷺ محبوب للخلق أجمعين، فبين أن أعلى درجة فى الحب لديه، لا ينالها إلا من تخلق بأخلاق الله تعالى، لأن أحاسن الأخلاق مواهب من الله تعالى يختص بها من سبقت لهم من الله الحسنى، وأن القربات وإن كثرت لا تُذكر فى جانب الأخلاق الفاضلة بشئ، وإذا رأيت رجلاً حسن الأخلاق مُرتكباً معاصى الجوارح، فثق أنه من أهل السعادة، لأنه تخلق بخلق من أخلاق الله، كمال قال ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين خلقاً فمن تخلق بخلق منها دخل الجنة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل فى يا رسول الله خلق منها؟ قال: فيك يا أبا بكر جميعها).

إذ لا يغتر بعمل الجوارح مع سوء الخلق إلا إبليس، فقد عبد الله سبعين الف سنة، لكن أبت أخلاقه إلا أن يُلعن ويُطرد، لعنة الله عليه، ومن نظر بعين فكرته إلى معصية آدم ومعصية إبليس، ومعصية بلعام بن باعوراء، ومعصية آصف بن برخيا، ومعصية إخوة يوسف عليه وعليهم السلام، يعلم أن المعاصى الأخلاقية توجب غضب الله وسخطه، كمعصية إبليس وبلعام بن باعوراء. وغيرها من المعاصى التى أسبابها طمع كمعصية آدم وإخوة يوسف. أو أمل كمعصية آصف بن برخيا لا تضر، لأنها ليست أخلاقية، فإن آدم طمع بالبقاء فى جوار الله حباً به سبحانه، وإخوة يوسف طمعوا فى وراثة الخليل عليه السلام، فإنهم رأوا والدهم يختص يوسف دونهم، وآصف بن برخيا كان له أمل فى مغفرة الله ورحمته، فكان عند ظنه بربه، ولم تكن معاصيه أخلاقية، لم يقل ﷺ: أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالساً المجاهدون ولا الذاكرون، ولكن حصر هاتين النعمتين فى أهل الأخلاق.

والإنسان كما أنه صالح للتأقلم فيعيش فى كل إقليم، فكذلك هو صالح لتنوع الأخلاق إن يسر الله له ذلك، وأعانه بصحبة عالم ربانى ليزكى نفسه. يبين ﷺ الطرف الأسفل من الرذيلة، محصوراً فى الأخلاق أيضاً: بقوله: أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجالساً بقوله: الثرثارون، أى: الذين يكثرون الكلام فى الجدل والعناد، والمتفيهقون، توضيحاً لقوله: (الثرثارون) لأن العربى يقول:

جادت عليها كل عيون ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم

فيقال: عين ثرة، أى كثيرة الرشح، أى الماء، ويقال: فهق الغدير إذا سال الماء من على جوانبه، وقوله ﷺ: الذين لا يألفون ولا يؤلفون، وهم الأشرار الذين يداريهم الناس خوفاً من شرورهم، فعلى الحريص على نيل السعادتين، أن يجمل نفسه بالأخلاق الفاضلة ليحبه الله ورسوله ﷺ والناس، ومن أمكنه أن ينال محبة الله ورسوله ﷺ والناس بشئ يسير من كلمة حسنة وتبسيمة يسُر بها أخاه، وغض بصر عن عيوب الناس وعفو عن الإساءة، وخسر تلك النعم فليبك على نفسه. وإنما هى أخلاق الله تعالى التى بها الفوز بالحسنى، أو أخلاق إبليس التى بها الخلود فى الدرك الأسفل من النار، والله أسأل أن يحفظنا من التشبه بإبليس رأس الغواة، إنه مجيب الدعاء.

طرق السلامة من عداوة النفس

أعدى الأعداء هى النفس

قال رسول الله ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) ولكن جهل الإنسان أعدى عدوه فعادى أحب الناس إليه.

من هو أحب الناس إلينا؟

أحب الناس إلينا رسول الله ﷺ ومن قام فينا مقامه، لأن رسول الله ﷺ أحبنا لنا، فكان بنا رؤوفاً رحيماً، يعالج أمراض أخلاقنا بكل أنواع الأدوية النافعة، لنتخلق بأخلاق الله تعالى، ويجذبنا ﷺ إليه خوفاً علينا من أن نسقط فى النار، فالسعيد من سمع وأطاع. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥.

ومن أحبك لك، شدد عليك وأزعجك وآلمك ليُقَوِّم أخلاقك وليزكى نفسك، وليجعلك قوَّاماً لله، شهيداً بالحق ولو على نفسك، لتكون معه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومن أحبك له استسلم لك وتملق، وأعانك على الخير أو على الشر.

ولذلك فرسول الله ﷺ يأمرنا وينهانا ويشدد علينا، ويلزمنا بمجاهدة أنفسنا، ولزوم الاستقامة مهما كان فى ذلك من العناء والمشقة، لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ومن أقامهم الله فينا مقامه ﷺ هم الأئمة الهداة الراشدون المرشدون، الذين جملهم الله بأخلاقه وأدبهم بآداب نبيه، وقد وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح. وما أيسر الوصول على من عرف نفسه فعرف ربه، وتذكر النشأة الأولى إلى الآخرة، ففر إلى النعيم الباقى، وحقاً فإن النفس هى أعدى الأعداء.

❊ ❊ ❊

بيان أعمال النفس

ولست فى مقام تعريف النفس وبيان حقيقتها، ولكن أعرفها لك بأعمالها، فهى كالشيطان الرجيم الذى يرى عمله ولا يرى حقيقته، فإن كل إنسان يعمل شراً يلعن الشيطان، والنفس فى الحقيقة شر على الإنسان من الشيطان، فإنه عليه لعنة الله ما ترك نبياً ولا صديقاً إلا ووسوس إليه، فيطفئ الله ناره بثلج اليقين الحق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ الإسراء ٦٥.

فالشيطان إنما يتسلط على أهل النفوس الأمارة بالسوء، فهو كالنار التى إذا ألقيتها فى ماء أطفأها، وإذا ألقيتها فى سائل قابل للالتهاب استعرت، هذا هو ميزان النفوس، فإذا رأيت الرجل يفتح أبواب الفتن ويؤجج نارها، فهو مجانس للشيطان، وإذا رأيته يتباعد عن الفتن ويدفع السيئة بالحسنة، فاعلم أنه مجانس للملائكة الأطهار، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

قال العربى:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال غيره:

فقلت: أخى، قالوا: أخ من قرابة　　فقلت لهم: إن الشكول أقارب

فما على مريد السعادة إلا أن يبحث عن أخ تقى ورع عالم بالله وبأيامه وبحكمة أحكامه، لينتفع بصحبته فى الدنيا والآخرة، وليجاهد نفسه ليكون كالظل يتحرك بحركته.

البطن واللسان والذكر

خالف عدوك فى نفسك تسلم من الأسقام، وخالف عدوك الخارج عنك تعش فى سلام. أعدى عدوك فى نفسك: البطن واللسان والذَكَر.

عداوة البطن

أما عداوة البطن فلأنها تشتهى ما يضر ولا ينفع، ومتى يسرت لها قصدها أنتجت ضررين:

الأول من الجسم، والثانى من تحكم المادة، فيضطر الإنسان إلى ما اعتاد عليه، فإذا تعسر عليه من المباح الطيب تحصل عليه من الحرام، فيغضب الله والناس، ويكون بين ضرر المرض والمقت. احذر هذا العدو ما استطعت لتعيش سالماً من عضال الداء ومن شديد البلاء، قال رسول الله ﷺ: (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه) وقال رسول الله ﷺ: (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء).

أهل الجهالة يحبون بطونهم ويعتقدون أنها سبب فى عافيتهم وفى لذتهم فيعيشوا ليأكلوا، وأهل العلم يكرهون بطونهم، لأنها سبب فى أمراضهم وفى معصية الله تعالى فيأكلوا ليعيشوا، وإن أكثر المحرمات فى الشريعة المطهرة يكاد ينحصر فى البطن. فإن الله سبحانه وتعالى حرم مال اليتيم والربا والمسروق ولحم الخنزير والخمرة وما ذبح على النصب وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وغير ذلك، وكله يتعلق بالبطن، ولم يحرم الله محرماً إلا وقد علم أنه مضر مهلك، لأن الله أرحم الراحمين، ولأنه سبحانه غنى عن الأشياء.

ومن عادى بطنه أطاعته الجوارح كلها لأنها جنود للبطن، تستمد منها ما به تقوى على معصية الله تعالى ومضرة عباده، والسلامة كلها فى عداوة البطن، فلا تمكنها منك. قال رسول الله ﷺ: (يكفى ابن آدم لقيمات يقمن بها صلبه).

الاحتياط من البطن: عودها ما تقدر عليه فقيراً، وإن كنت فى وسعة وبسط من العيش، حتى يدوم لك الغنى عن شرار الخلق، واقهرها بالبعد عن مجالسة كلاب الدنيا عبيد شهواتهم، وألزمها صحبة الفقراء لتشعر بعظيم نعم الله عليك، فعليك بمجالستهم لتحتقر أعمالك من البر فى جانب أعمالهم، فتكون شاكراً ذاكراً.

إذا تحققت أن أعدى عدوك بطنك، أعددت العدة لقهرها على ما يحبه الله، وإن إطاعتها سبب فى معصية الله وعداوة خلقه، وما من حيوان ولا إنسان يعادى غيره إلا بسبب البطن، فإن الخصومات على الأموال والنساء سببها البطن، طمعاً أو شبعاً، ومتى تسلطت عليها استرحت من جوارحك والعالم أجمع، وكنت من أولياء الله تعالى، وما فاز أحد إلا بالورع، والورع معراج المقربين إلى الله تعالى.

عداوة اللسان

اللسان فرع البطن، فإذا جاعت البطن حسُن اللسان وكان عاملاً للألفة والمحبة حتى يحكم من يراه أنه من أولياء الله الصالحين، ومن جاع أربعين يوماً تفجرت الحكمة من قلبه على لسانه. اللسان يلقى فى هاوية النار من أطاعه ويرفع إلى مقعد صدق من خالفه، لأنه مصدر الكذب والغيبة والنميمة والزور والبهتان والعداوة والتفرقة والأيمان الباطلة والخديعة، قال ﷺ: (وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم).

إنما يتمكن العدو من الإنسان إذا ظهرت عورته وجهات ضعفه، فقلل من العورات، واستر ما فيك عن غيرك، وعالج ما فيك من الضعف، أو أخفه عن غيرك تسلم من عدوك، وإنما الإنسان منفرداً كالمملكة، وكل فرد منها ككل عضو من الجسد، فإذا قام رجل من المملكة، فأخبر العدو بعوراتها وجهات ضعفها دخل العدو من جهتها، فالواجب على أهل المملكة أن يطهروا من الشريرين، الذين يبيعون الدين والشرف بالعرض الفانى أو بالأمل الكاذب، كما يجب على الإنسان أن يتعهد أعضاءه بقهرها على ما به سلامة الجسد من الأمراض الجسمانية أو العيوب الأخلاقية، ليكون عضواً عاملاً لخير نفسه وقومه.

آثار اللسان

إنك ترى الصديقين يعيشان العشرات من السنين، كأنهما روح واحدة فى جسمين، وبكلمة واحدة من اللسان تحصل بينهما الحرب، بل وترى الرجل يعيش العمر الطويل مؤمناً وبكلمة واحدة يكفر، كما أنك ترى العدوين بكلمة واحدة يتحابان، وترى الكافر بعد أرذل العمر بكلمة واحدة يصير مسلماً ولياً.

(إن الرجل ليقول الكلمة من غضب الله، يضحك بها القوم لا يلقى لها بالاً، فيهوى بها فى النار سبعين خريفاً، وإن الرجل ليقول الكلمة من الخير لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها). انظر أيها السالك إلى أصغر عضو فيك، إذا أنت حفظته يتولاك الله به ويرقيك ويجعلك من أحبابه، ويسخر لك به المُلك والملكوت.

إن الله تعالى حبس اللسان فى حبسين: حبس من عظام وحبس من لحم، لما يعلمه فيه من الشر فشدد عليه، ولا تنطق به إلا بعد الروية، قال الشاعر الحكيم:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

والإنسان تحت كلمته، فاحذر أن تكون عبداً لغيرك بوعد أو وعيد، قال ﷺ: (قل الخير وإلا فاسكت).

* * *

عداوة الذكر

قال رسول الله ﷺ: (استحيوا من الله عز وجل حق الحياء، قالوا: يا رسول الله إنا نستحى والحمد لله، قال: ليس ذلك ولكن من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء).

هذا العضو إذا حصنه المسلم، فاستعمله فيما أحله الله له، جعل الله منه أولياءه الأبرار

وأحبابه الأطهار والعلماء الأخيار، فكن سبباً لإعلاء كلمة الله، وإحياء سنة رسول الله ﷺ.

وإذا تعدى المسلم به حدود الله تعالى، أنتج عمله حقائق شيطانية ومردة فى صور إنسانية، فأفسدوا البلاد وأضلوا العباد وعمروا جهنم، وأغضبوا الله ورسوله ﷺ. هذا العضو الصغير قد يخلق الله تعالى بسببه أكبر أوليائه وخير الصديقين من عباده، وقد يكون سبباً فى أكبر الشياطين والمردة، فليتق الله المسلم فى هذا العضو، وليتصور مقدار ما تنتجه تلك الشهوة من غضب الله تعالى ومضرة المسلمين والفضيحة يوم القيامة، وليعتقد بأن الله يعجل بالزنا ثلاث مضرات فى الدنيا، أولاً: الفقر المدقع، فلا ترى زانياً إلا ويعجل الله له الفقر، والثانى: المرض العضال، لا تجد زانياً إلا ويصاب بمرض تبقى مضرته فى نسله دائماً، والثالث: الذُل، فما من زانٍ إلا وينكشف عنه الستر، فيذل ويخزى من وصمة الزنا، نعوذ بالله من ذلك.

وقد اجتمع فى بيت عثمان بن مظعون مجموعة من الصحابة وتشاوروا فى أن يقطعوا مذاكيرهم ليستريحوا، فجمعهم رسول الله ﷺ ووعظهم موعظة شديدة، قال فيها: (من خالف سنتى فليس منى). وهؤلاء من تعلم مراقبة وخشية من الله تعالى، فاحفظ يا أخى هذا العضو واحذر أن يلقيك فى نار جهنم، أو أن تكون سبب فى إيجاد أنفس سُجل عليها العذاب، فإن ابن الزنا يخلد فى النار لأنه نطفة نجسة، افتتحت بغضب الله تعالى فكانت شراً على المسلمين، وضرراً لمن انتسبت إليهم كذباً، وما تقول فى رجل يرث ما ليس له وينسب إلى من ليس منه، وهو نتيجة غضب الله تعالى ومخالفة حكمه، بل ما تقول فى عمل لا حد له إلا القتل، هذا وإنى لأعجب من مسلم يصدق بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد ٤، ثم يخلو بالأجنبية ويزنى فيها وهو يستحى أن يطأ زوجته أمام ولد لا يبلغ الرابعة من عمره، فكيف يستحى من عمل الحلال أمام ولد صغير، ولا يستحى أن يعمل الحرام أمام الرب الكبير! يقول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ المجادلة ٧، ولو أن لهذا الزانى عين تُبصر لذاب كما يذوب الثلج خوفاً من الله المطلع الناظر إليه، وكيف تقهر الشهوة البهيمية هذا المسلم

الذى صدق الله فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ الحديد ٤، فكيف يصدق أن الله معه وتعمى بصيرته عن فهم الآية، ويرتكب الزنا ويظن لجهله أنه فى خلوة، والقهار المنتقم مطلع عليه ومعه، وقد انحط عن البهيم الأعجم الذى لا يعمل هذه الأعمال كالحمام والجمال وغير ذلك من الحيوانات التى لكل ذكر منها أنثى خاصة به.

متى خلوت أيها المسلم؟ نعم خلوت ولكن من الخلق ولكن الله مُطلع عليك، وهو قادر أن يخسف بك الأرض، فتدارك نفسك قبل نزول النقم، وهل يرضى المسلم أن يرى أجنبياً يعلو زوجته أو أمه أو ابنته؟ أظن أنه يغار غيرة تؤدى إلى القتل، فإذا كانت هذه غيرة الإنسان على محارمه فكيف بغيرة القوى القهار على محارمه؟ إن الله غيور ولغيرته حَرَّمَ المحارم، وإذا غلبتك الشهوة يا أخى فأحضر جمرة من النار وجربها، فإن تحملتها فافعل ما شئت، وإن لم تتحملها فكيف ترضى أن عضواً صغيراً يُدخل جسماً كبيراً فى النار مخلداً! والله تعالى أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه آمين.

تتيمت بعد الشيب منى عناصرى ... تميلى مع الأهواء ميل المقامر
وهل بعد شيبى يا عناصر فتنة ... وقد شغلتنى فى الشباب مظاهرى
وهل ترعوى أمارة السوء بعده ... تريدين أن ألقى بنار المقابر
تعرف لى الرحمن فى كل مظهر ... وأدفع جهلاً قابل التوب غافرى
وفى هيكلى البرهان أنى عبده ... وكم تشهد التوحيد منى بصائرى
وظلمى وجهلى يدفعانى عن الهدى ... فأدفع رحماناً بجهل المغامر
أأدفع من أنشأ وأعطى وودنى ... بخير العطايا من ولى وقادر
أنب مقبلاً واعلم يقيناً بأنه ... تعالى هو التواب عن كل سائر
وسر تائباً وانهج صراط محمد ... لينجيك الرحمن من كفر كافر
يجملنى الرحمن منه بوصفه ... ليظهرنى نوراً كضوء الزواهر
يخدم لى أهل الصفا من عباده ... يسخر لى الأكوان كل المنابر
وأمارتى تنسى وتجهل ويحها ... تسارع للأخطاء فعل المجاهر
وأعمالها قد أعجزتنى فبينت ... مشاهد توحيد علت عن مكابر

تحققت عجزى وهو توحيده الذى ... به قد عرفت الله لا بالدفاتر
بعين يقين بعد عجزى بأننى ... عرفت به نفسى توالت بشائرى
لقد يئس الشيطان بعد تحققى ... بعجزى ولاح الغيب نور السوافر
عجيب يكون العجز علماً وقربةً ... وكشفاً جلياً للكرام الأكابر
لك الحمد يا تواب تمنح من تشا ... عطاياك بالإحسان والله ناصرى
على النفس والشيطان والحظ والهوى ... ليشهد توحيداً بغير الستائر

الباب الثامن

المكارم والعافية والقوت والأمن

أقسام المكارم

المكارم قسمان:

أحدهما ما ينال به الإنسان ثواب الله تعالى فضلاً وإحساناً، وهو كل عمل من أعمال الخير سارع إليه الإنسان ابتغاء وجه الله تعالى، ومن وفقه الله لهذا العمل أحبه وأحبه الخلق، وهؤلاء هم السعداء فى الدنيا والآخرة، وأعمال الخير معلومة، ويمكن تحصيلها إذا لم يتجمل بها قبل بمصاحبة الأتقياء والعلماء العاملين، ومن علم مقدار ما يناله من الدنيا والآخرة بعمل المكارم، لاجتهد فى نيلها بالطرق الموصلة إليها.

القسم الثانى ما ينال به الإنسان محبة الخلق وحسن الأحدوثة بينهم بالصبر على عمل ما يعود نفعه عليهم، ولا تكون خيرات هذا القسم من الخير الحقيقى، إلا إذا اتبع الإنسان فى عمله أحكام الشريعة، وَحَسَّنَ نيته، فإن من نفع الناس وأرضاهم بما يغضب الله تعالى، أضر

نفسه وغيره، وتفصيل هذا بديهى، فإن كثيراً من الناس يبيع دينه بدنيا غيره، والخير فى الحقيقة ما كان صافياً لا شر فيه.

السعيد حقاً من غلبت حسناته على سيئاته، وجاهد نفسه حتى يكون مُحسناً سالماً من قُبح التقصير، وإنما يسعد الإنسان بما اكتسبه من الأخلاق، وما قام به من جميع العبادات والمعاملات، ولا يستحق ذلك بالمكارم التى فطر عليها، من حسن الصوت وتناسب الأعضاء وشرف النسب والعقل والذكاء والفطنة لوجودها بغير فعله، وإن مدحه الناس عليها.

من العجب أن الإنسان ينتقى أجود الأطعمة وأنفعها لبدنه، ويتحفظ مما يضره، وهو ببدنه حيوان ضعيف بالنسبة لأنواع الحيوانات، ثم يهمل نفسه فلا يغذيها بالعلوم ولا يداويها بالتهذيب والتزكية، ويهمل العناية بهذا الدواء من التعليم وحسن التهذيب، فيصير أقل من البهائم وأضر من الشياطين، وأعجب من ذلك الاهتمام بأعضاء الجسم، ويخص بالعناية بعض أعضائه لشرفها، فينتقى البيوت لجودة الهواء، ويهمل أجزاء النفس وخصوصاً الأشرف منها وهو العقل.

وترى الإنسان إذا مرض عضو منه سارع إلى الطبيب متملقاً له، وبذل نفائس الأموال ليعيد عليه ما فقد من الصحة، وقد تمرض نفسه بقبيح الأخلاق وشر العوائد فلا يهتم بمعالجتها، ويتساهل حتى يصير أحط من البهائم وأسفل من الشياطين، وإنما تعالج النفس بصحبة العلماء والحكماء الذين جملهم الله تعالى بمكارم الأخلاق، وتكمل النفس بصحبة أهل التقوى من العباد والزهاد، وخير دواء للنفس أن يغذى الإنسان نفسه الملكية بتلاوة القرآن الشريف ومطالعة كلام رسول الله ﷺ، وبالنظر فى كتب العلماء بالله تعالى، مع المسارعة إلى التشبه بأولياء الله الأخيار، ويجاهد نفسه على الصفات الجميلة وترك ضدها، ثم يقهر النفس الشهوانية باجتناب السفهاء والجهلاء والمتساهلين بالدين والنساء والصبيان والأراذل، حتى يقهر عدوه شهوته، وأن يطيل صحبة العاملين بكتاب الله تعالى، وسُنة رسول الله ﷺ من المجتهدين والعباد والزهاد، وأن يراقب الله تعالى ويتذكر عذابه عند ثورة الشهوة، ثم يجتهد فى تلطيف القوة الغضبية، فينظر فيما يناله من أذية غيره له، فيكره أن يضر

غيره بما يكرهه فى نفسه، ويلاحظ ما يعود على المسئ فى الدنيا والآخرة، ثم ينظر إلى غيره، فما كرهه فى غيره من طيش وعجلة وانتقام، يجب أن ينفر منه عند الغضب، ثم يجاهد نفسه بإطفاء شعلة الغضب بالطمع فى عفو الله والتباعد عما يضر.

وهنا يحسن أن نفصل هذا المجمل، بحكمة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: (سبب الحلم التواضع، سبب الغنى القناعة، سبب النبل العفاف، سبب العقل المداراة، سبب الأدب المواظبة، سبب الثناء السخاء، سبب الحظوة الصدق، سبب الجود الفضل، سبب قضاء الحوائج الرفق، سبب الرزق الطلب، سبب المزيد الشكر، سبب المحبة الهدية، سبب الأخوة البشاشة، سبب الغفلة الهوى، سبب الضعة الشح، سبب الفجور الخلوة، سبب القطيعة المعاتبة، سبب الفقر السرف، سبب المقت الخلف، سبب المذلة الكذب، سبب الذل السؤال، سبب الهوان الطمع، سبب الحرمان الكسل، والخير كله يجمعه الحياء والعقل).

عناية الإنسان بالعافية والقوت والأمن

إن عناية الإنسان بحفظ عافيته أو بردها عليه إذا ألمَّ بها ألم، عمل فى طاعة الله تعالى مع حسن النية، ومسارعته إلى عمل ما لابد منه ليعيش آمناً فى سربه مطمئناً على نفسه، لا يسومه عدو خسفاً، ولا يتسلط عليه خصم بالباطل، عمل مبرور مشروع. واجتهاده فى تحصيل ما لابد له منه، ولمن وجب عليه السعى عليهم شرعاً عبادة لله تعالى، ليس من أعمال الدنيا، لأن الله تعالى خلق الإنسان وخلق له كل شئ، وقدر فى أزله أن يكنز له كنوز المنافع فى أرضه، وشاء سبحانه أن لا ينتفع بها إلا بالكدح والعمل.

حكمة خلق الله للإنسان

حكمة خلق الله الإنسان جلية لمن اجتباهم الله، وهى محصورة فى ثلاثة معان:

أولها: أن يستعمر بهم الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود ٦١.

ثانياً: أن يعبدوا الله تعالى.

وثالثها: أن يبلغوا مقام القرب منه سبحانه حتى يكونوا خلفاء عنه جل جلاله. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦، وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠.

اقتضت الحكمة الإلهية أن يهب الله تعالى للإنسان الآلات والأدوات التى أعانه الله تعالى بها على نيل ما يسره له وقدره، ولا يتسنى للإنسان أن يعبد الله تعالى إلا إذا توفرت له العافية والأمن والقوت، بل ولا يبلغ درجة الخلافة عن ربه سبحانه وتعالى إلا إذا تحصل على العافية والأمن والقوت.

وكل عمل لتيسير تلك الضروريات مندوب شرعاً، وقد يكون واجباً يثاب العامل فيه أكثر مما يثاب الصائم القائم.

ولما كان كل إنسان فى أشد الاحتياج إلى تلك الأشياء، حصلت المنافسة بين الناس، ولزم أن يكون هناك شرع يكبح النفوس عن جشعها، والأجسام عن مقتضيات فطرها، والحواس عن استرسالها فيما لا يباح لها، حتى يعيش الإنسان أخاً للإنسان، متحصلاً على العافية والأمن والقوت، ليتفرغ لشكر من أنعم عليه بسوابغ النعم، قياماً بحقوق عبادته سبحانه وتعالى، واستعداداً لنيل فضله المقدس من الخلافة فى الدنيا، وجوار أولياء الله الأطهار يوم القيامة.

وكل إنسان تمسك بالشرع الشريف، تحصل على أنواع المسرات فى الدنيا وفاز بالسعادة فى الآخرة، ومتى تجاوز الإنسان حدود الأدب مع الشريعة فأطاع طمعه وحظه وهواه صار شقياً، وإن توفر ماله ـ منحوساً ـ وإن بلغ آماله، لأنه يصير لا يحبه إلا نفسه ويبغضه أهله ووالداه والناس أجمعون، إلا من داراه خوفاً من شره أو واراه اتقاء أذيته، وما هذه الحياة التى يكون فيها الإنسان كمسجون، أقيم خادماً لمخازن السجون، كذلك تكون حياة من تعدى الآداب الشرعية يكثر ماله وتنتشر شهرته ويجعل بطنه كقبر للحوم الحيوانات،

وجسمه كنوافذ بيوت الملوك، عليها ستائر الخزى والديباج، وقلبه محترق بالحقد والعداوة وحب الانتقام، والتربص لمن عاداهم بغير سبب، فلا ينام الليل من نار حب الانتقام، بل ومن الخوف من أن يُنتقم منه. يجالس أهل الشرور والفساد ليستعين بهم على الانتقام، فيتخذ شرار الخلق أصدقاء يستعين بهم على من أمره الله بصلتهم، ويبذل نفائس أمواله للظلمة المتسلطين، أو أعداء الله المتغطرسين ليكبت أقاربه وأرحامه. هذه حياة السباع والوحوش الكاسرة فى الغابات أو اللصوص النافرة فى الظلمات، وبئس تلك الحياة، ولو تدبر هذا الشقى لعلم مبدأه ومعاده، وأنه خلق من بولة بالها أبوه فى رحم أمه، وأنه خرج من فرج أمه عرياناً فرأى نعم الله تحيط به فى السماوات والأرض، فإذا تبصر وعلم أنه سيرحل عن تلك الدار الدنيا إلى الدار الآخرة وأن مرده إلى الله، لبكى على نفسه قبل حلول رمسه، وسارع إلى آداب الشريعة فتمسك بها وتعصب لها، ولديها يذوق لذة الحياة، حياة الأنس بالله تعالى، حياة التجمل بأخلاق رسول الله ﷺ، حياة الإقبال على الله تعالى بالكلية، ولديها يدله الله تعالى على مرشد عارف بالله، يبين له طريق الله تعالى، ويدله على معارج الوصول إلى الله تعالى، ويسلك معه على صراط الله المستقيم، فيحيا حياة الأبرار المتقين، عاملاً من عمال الله المخلصين، سعيداً فى الدنيا والآخرة، مسارعاً إلى إحياء سُنة رسول الله ﷺ، وإعلاء كلمة الله.

تلك الدرجات العُلى لا تُنال إلا بالأخلاق، ولا أخلاق إلا بتزكية النفس، ولا تتزكى النفس إلا بحفظ آداب الشريعة، ولا تُحفظ آداب الشريعة إلا بعلم الكتاب والسُنة، ولا علم إلا بمرشد عارف بالله متمكن.

حفظ العافية والعمل لجلب القوت والأمن عبادة

إن حفظ العافية على الإنسان ليكون عاملاً من عُمال الله تعالى لخير المسلمين وإحياء السُنة وإعلاء الكلمة من أكمل العبادات، وإن العمل ليحصل الأمن للأمة، وبذل النفس والنفيس لنيل ما يقرب إلى الله تعالى، وهى من وظيفة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وإن العمل للقوت خصوصاً إذا كان الإنسان ذا عيال أفضل عند الله من الصيام والقيام فى

نـافلة، والمريض لا يحسن عبادة الله تعـالى ولا استعمار أرضه، ولا يصلح أن يكون خليفة عن ربه، والخائف لا يمكنه أن يتـفرغ للعلم، ولا للعمل الصالح فى الـدين أو فى الدنيا فى حاله أو مستقبله. وقد يكون الواجب على الأمة جميعهـا أن تتحد قلباً وقالباً على تحصيل ما يحصل به الأمن فى الـدين والدنـيا والعرض والمـال والأولاد حالاً ومسـتقبلاً، حتى يـطمئن القلب على حفظ العوائـد والأخلاق وموارد الثـروة وحسن المعـاملة، وتـولى الأمر من يحـب الخير للأمة ويحـفظ دينها ودمها ودنيـاها وعوائدهـا الجميلة وفنونهـا وصنائعها، ليحـيا أفراد الأمة فى أمن وأمان وراحـة جسم وقلب فى صلـح وصلاح تتبادل أنـواع المسرات والخيرات، يـرحم كبيرهم صغيرهم ويعـظم صغيرهم كبـيرهم، حتى يـكونوا كـالجسد الـواحد يخدم كـل عضو منـه سائر الجسد، وهل يحيا جسد وقلبه من غيره! أو يقوى جسم ورأسه من غيره! اللهم لا.

نتائج الأخلاق

الأخلاق بهـا يكون الإنـسان فـوق الملائكـة قدراً أو أضر مـن الشيـطان شراً، والإنـسان بأخلاقه قد يجـانس عمار ملكوت الله، حتى يسمع بجـوهر نفسه النفيس كلام الله، وتصافحه الملائكـة فى الطرقـات وعلى فرشه، وقد يـنحط بأخلاقه حتـى يكون شراً من الـشيطان وأضر من الثعبان، وأثقل من جبل رضوى، وأبغض إلى الخلق من المرض العضال، وعجباً للإنسان أعده الله أن يكون مـواجهاً بوجهه العلى، فى مقعد صدق عـند مليك مقتدر، ويَسَّر له المعارج التى يرقى عليها ويأبى إلا أن يظلم نفسه، فيكون فى الدرك الأسفل من النار. والسعيد حقاً من أدبه الله تعالى بالآداب الشرعية، ووفقه للعمل بمحاب الله ومراضيه.

الطريق عند الرجال

الطريق ومآخذه

الطريق هو السبيل، ومآخذه عند الرجال من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الأحقاف٣٠، وهو فى اصطلاح أهل السلوك إلى ملك الملوك، محو ما بينك وبين الوصول إلى مقصودك، فالسالك إلى نيل قصده يترك وراءه آثاراً كثيرة، حتى يمحو كل بين يحجبه عن مقصده، ولذلك السالك فى طريق الله تعالى ينسلخ من كل ما يحجبه عن الحق جل جلاله، حتى ينمحى البين من البين وتقع العين على العين، إما مراقبة أو رعاية أو شهوداً أو طمأنينة قلب فى مقام اليقين الحق، بعد مراتب اليقين علماً وعيناً.

هو الصراط عليه السير للوصول ... طريق أهل الصفا بالحال والقول
عليه سار الآلى بالحق فاتصلوا ... لحضرة الاجتلا بالفضل لا العدل
من مال عنه هوى فى النار مختبطاً ... لأنه منهج المختار بالفعل
هو السبيل وحبل الله متصل ... وأمن مقتدر ذى الجود والفضل
من خالف الشرع معتدياً يضل ومن ... تجاوز الشرع قد ينأى إلى الذل
شريعة الله عهد الله يمنحه ... بفضله من صفوا للحب والطول
هى العناية والحسنى لهم سبقت ... مفارق الشرع ينأى أسفل السفل
أدم لنا الحفظ والآداب خالقنا ... ممتعين لدى الإحرام والحل

بداية الطريق

بدايته مجاهدة لتزكية النفس بالقيام بما فرض الله تعالى أولاً وبالذات، وبما رغب فيه رسول الله ﷺ، وبالمسارعة إلى كل خُلق جميل وعادة حسنة وعمل حق يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ، ثم يأخذ فى الانسلاخ من مألوفاته وعوائده الكمالية أولاً، ثم يقلل من مألوفاته

الضرورية، حتى تصل به المجاهدة إلى ما لابد لبقائه منه، ثم يأخذ فى البحث عن الحى القائم الدال على الله، العالم بالنفوس وأمراضها من نزوع الشهوات والأهواء وميول إلى ما يلائم النفس، العالم بالحقائق التى خلق الله منها الإنسان، فإن الله جل جلاله خلق الإنسان متطوراً فى بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام، ثم كسا العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر، بعد أن افتتح خلقه من سلالة من طين، ثم جعل سبحانه وتعالى فوقه سبع طرائق، وهذا العالم بالنفوس هو العالم بالله وبأيام الله وبأحكام الله، وطلبه فريضة لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، والعلم بالتعلم والتعلم بالعالم، ومتى سعد السالك فى طريق الله بهذا العالم، أكمل الله له دينه وأتم عليه نعمته ورضى له الإسلام ديناً.

ومعلوم أن العالم أجمع، لا يجهلون الإله الحق، الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما واستوى عل العرش، وإنما المجهول علم ما يحبه ويرضاه من العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، والقيام بما يحبه ويرضاه بعد العلم، وشهود أنواره وأسراره وآياته فى مكوناته، مع كمال التنزيه والتسليم لله تعالى من غير منازعة بالعقول، ولا مخالفة بالنفوس حتى يصل إلى مقام من أثنى الله عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢ .

أما تفصيل ما أجملت وتوضيح ما أبهمت، فقد شرحناه فى كتبنا فراجعه، والله سبحانه هو الهادى لأقوم طريق.

من عرف نفسه عرف ربه

الإنسان إذا جهل نفسه، انحط فصار كالأنعام أو أضل، وربما انمسخ فكان شراً من الشيطان، يعبد هواه وحظه، لا يمنعه عن فعل الشر إلا سوط سلطان، أو مرض أو عدم إمكان، والجاهل بنفسه عدو نفسه، يرمى بها فى مهاوى الهلكة، فلا يبالى أن يغضب الله ورسوله ﷺ إذا تيسر له حظه، لا ينظر بعين الفكرة ولا يتدبر بباعث العبرة، وإنما قيمة الإنسان فى المجتمع بقدر علمه بنفسه، فإذا رأيت إنساناً يستهين بأحكام الله، فلا يحرم ما حرم ولا يقوم بما عليه أوجب، فاحكم عليه أن صورته صورة إنسان وحقيقته حقيقة شيطان، وثوق شروره فلا تأمنه على مال بل ولا على عرض بل ولا على دين، وكيف تأمن من يهلك

نفسه بمخالفة أحكام الله تعالى؟ خصوصاً ما كان منها صريحاً ولا يقبل التأويل، فقد يترك الإنسان المسلم الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويظهر نفسه أمام الناس أنه ولى، وقد يستعمل الربا فى معاملته، فيغضب الله تعالى ليجمع المال، وقد يشرب الخمرة مع تحققه بضررها وصعوبة تناولها وغلو ثمنها وحرمتها ديناً وإفسادها للصحة والعقل والشرف بين الناس، ومع علمه الحقيقى بتلك المضار كلها يشربها فرحاً متلذذاً، أمثل هذا يكون إنساناً؟ لا بل ولا حيواناً بل ولا شيطاناً، لأن الحيوان لا يضر نفسه وإن أضر غيره، والشيطان لا يقصد ضرر نفسه، ولكنه يجتهد أن يضر غيره بالغواية، فإذا أضر غيره تبرأ منه. وهذا الجاهل بنفسه يضر نفسه، بعمل المحرمات، ويضر أقاربه وأحبابه لأنهم يقلدونه فى أعماله إن كانوا جهلاء مثله، أو يقهرونه على ترك القبائح إن كانوا عقلاء، فتحصل العداوة والبغضاء.

معرفة النفس وتربيتها أصل النجاة

والواجب علينا المسارعة إلى تربية أنفسنا التربية الدينية التى بها يمكننا أن نتشبه بسلفنا الصالح، فنفوز بالمجد فى الدنيا، وبنيل الحسنى يوم القيامة.

عن كميل بن زياد قال: سألت مولاى أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين: أريد أن تعرفنى نفسى، فقال: (يا كميل وأى الأنفس تريد أن أعرفك؟ فقلت: يا مولاى، وهل هى إلا نفس واحدة؟ قال: يا كميل إنما هى أربعة: النامية النباتية، **والحسِّية** الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية، ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخصلتان.

فالنامية النباتية لها خمس قوى: جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ومرتبة، ولها خاصتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد.

والحسية الحيوانية لها خمس قوى: سمع وبصر وشم وذوق ولمس، ولها خاصتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب.

والناطقة القدسية لها خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث، وهى أشبه الأشياء بالنفوس الملكية، ولها خاصتان: النزاهة والحكمة.

والكلية الإلهية لها خمس قوى: بقاء فى فناء، ونعيم فى شقاء، وعز فى ذل، وفقر فى غنى، وصبر فى بلاء، ولها خاصتان: الرضا والتسليم، وهذه هى التى مبدؤها من الله وإليه تعود، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الحجر ٢٩، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝﴾ الفجر ٢٧-٢٨.

صفاء النفس

النفس إذا صفت اقتبست من الغيب المصون، وآثار النفوس محسوسة وانفعالاتها عند المقتضيات جلية، ومن ذلك أهل الفراسة والعرافون والكهان والسحرة والمشتغلون بالرمل وطرق الحصى والتفاؤل والحكم على غد بما هو فى اليوم والحكم على حصول الشئون بالنجوم، وأغلب هذه الظنون والتخمينات تحصل غالباً، وما يكون للفرد يكون للأمة.

اليوم ينبئ بالإشارة أن الله تعالى سيرفع من خفضتهم الغفلة وأضعفهم النوم، ويخفض من غرتهم المهلة وقواهم الغرور. الحق فوق الخلق، والمُلك يعطى بفضل الله ويحفظ بالعدل، فمن وهب له المُلك وظلم الخلق سلب منه الحق ما أعطاه، وسلط عليه من استضعفهم من عباد الله.

ترك المسلمون وصايا نبيهم ﷺ، وهجروا كتاب ربهم سبحانه، وبالكتاب والسُنة مكنهم الله فى الأرض وصرفهم فى الخلق، ومن ترك ما به رقيه انخفض، وهى سُنة الله تعالى. سلط الله عليهم أمماً من غيرهم ليؤدبهم، فلما أن مكنهم الله منهم، وما كان لهم أن يتمكنوا من مجتمع كثير عَدَدُهُ وَعُدَدُهُ لو اتحد، قوية شوكته منيعة داره بعيدة منالة، لو حافظ على وصايا رسول الله ﷺ، فلما سلطهم الله غرتهم المهلة، فطعنوا فى دين الله ونشروا الأكاذيب عن رسول الله ﷺ، فغضب الله لدينه ولرسوله ﷺ، فألقى العداوة والبغضاء والحرب بينهم، فذلوا بعد العزة والقوة والتمكين، وألقى الألفة والاتحاد على عبيده المستضعفين فى الأرض فعزوا، سُنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسُنة الله تبديلاً، فاليوم ينبئ بخير الغد، وإذا ما أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، هذه كلمة الفراسة.

أما كلمة التنجيم، فقد قارن المريخ كيوان فى آخر درجة من الميزان، فتم الهبوط وابتدأ الصعود، ونادى كيوان برفعة أهل الإيمان فى كل مكان. أما العرافة، فإذا حصل الهرج والمرج وطاشت الأحلام واستيقظ المحروم من حقه المعلوم، وتغيرت الدول وظهر التوحيد على كل الملل. أما الكهانة، فإذا دارت الكؤوس أزهقت النفوس وطاشت الأحلام وانتشر الملام، وتغير السلام ورجعت الشمس إلى مشرقها. أما المنامات فقد كثرت، تشير إلى زوال الآفات وتوالى البركات، وكل ما هو آت آت، وإنما الخير بتقدير الله والجد لا بالحيلة والكد. يعطى بفضل الله وإحسانه، ويسلب بعدله وتقديره، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ الإنشرح ٥-٦.

السياسة مرض فى النفوس

نيل القصد بالجد لا بالسياسة والكد، أقول السياسة مرض فى النفوس، لأنها نوعان: سياسة الإقدام لنيل البغية والمشتهيات من الغير مع ضرره، وسياسة الإحجام عن الانتفاع بما هو نافع حرصاً على الحياة، أو استبقاء لها بالقليل مما لابد منه، وهى سياسة الأمم الجاهلية والأمم المضلة، لأنها فطرة فى الإنسان من حيث هو إنسان.

وهذان النوعان من السياسة يستعملها الإنسان، حتى من سن الطفولة إلا أن الوسائل تتفاوت، فقد تكون قهراً ظاهراً بالخداع والحيل عند المساواة فى القوة، وكلا النوعين مضران جداً بالمجتمع الإنسانى، وهو أشبه بعمل الوحوش منه بعمل الحيوانات الداجنة. فالإنسان مهما ارتفع علمه فى العلوم والفنون والصناعات، فهو أضر من الوحوش وشر من الشياطين، ما لم يتهذب بالآداب الشرعية ويتأدب مُزكياً نفسه برعاية ما جاء به رسول الله ﷺ. كيف يتلذذ الإنسان بالانتقام من غيره، ويفرح بسلب نعمة غيره وهو غنى عنها؟ وفرح يحزن الغير هو فرح الوحوش.

الأخلاق

النفوس النورانية

تتفاوت النفوس بحسب استعداداتها، فمن النفوس ما هو أصفى الجواهر النورانية، حتى تبلغ النَفْس مبلغاً تتجمل بالفيض المقدس، فتصل إلى مقام من القرب، حتى ترى الملائكة وتأنس بها، وتشهد الحكمة فى كل شئ، وقد ترتقى عن هذا المقام إلى ما هو أعلى منه، وهو مقام التلقى عن الرب جل جلاله، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ البقرة ٣٧، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ النساء ١٦٤، ودون ذلك مقامات من القرب تظهر جلية فى النفوس الصافية الزكية، فترى الإنسان ينجذب بكليته إلى عمل الخير الحقيقى من الرحمة والرأفة والعفو والإحسان والسماح ودفع السيئة بالحسنة، متلذذاً بما يناله فى سبيل ذلك من المهانة بين الناس وفقد الأموال والجاه، تلذذاً بما يحصله من الصفات الجميلة والفضائل الكاملة، التى أثنى الله تعالى على من تجمل بها، فيكون ما فقده من المال والجاه وما صبر عليه من البلاء والشدة، مضمحلاً فى نظره بالنسبة لما شهده بعين بصيرته فى نفسه من مكارم الأخلاق، التى يعلم أن الله تعالى يحبها، فتحصل له البهجة المؤدية إلى شكر الله تعالى. أهل تلك النفوس فى أُنس دائم ومسرات متوالية، لأن ما تتلذذ به نفوسهم تحصلوا عليه، وهو التجمل بالصفات المحمودة شرعاً، وهؤلاء يحبهم الله ويحبهم الخلق أجمعون، إلا حسوداً أو منافقاً أو كافراً، وليست محبة الله للعبد بالأمر الذى يستهان به إلا عند من أبعدهم الله عن السعادة، لأن نيل محبة الله للعبد فوق كل غال ونفيس من حال وحياة ونفس، وإن كانت محبة الله للعبد هى سبب محبة العبد لله تعالى، لأن الله إنما يحبب فيه من أحبه، فيقيمه سبحانه عاملاً له بما يحبه ويرضاه جل جلاله، وهذا العبد يكون فى نهاية المسرات والشكر.

أما نهاية المسرات: فلأن الله تعالى يحبب فيه عباده، فيقبلون عليه، لما جمله الله تعالى به من الأخلاق الكريمة، ويعينه الله بهم.

وأما الشكر: فلأنه يرى ما أقامه الله فيه من الإقبال عليه سبحانه، ومن القبول عند الخلق، ويرى غيره من أهل المعاصى فيشهد نعمة الله تعالى عليه، وفضله الواصل إليه، فيسارع إلى شكر الله، والشكر سبب المزيد.

قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم ٧، هذا العبد المتجمل بتلك الأخلاق، إليه تسارع الناس لقضاء مصالحهم، إما ببذل ما فى وسعه أو بالمساعدة بجاهه أو بالدعاء الصالح لهم فيما لا وسيلة له إليه.

كل هذا الخير العظيم بسبب الأخلاق، وهل تلك الأخلاق يكتفى للإنسان فى التجمل بها بصفاء جوهر نفسه، أم لابُد من تحصيل آداب ورعاية أحكام؟

النفوس النورانية فى حاجة إلى التأديب والتزكية والرعاية

إن النفوس وإن صفت جواهرها فهى فى حاجة إلى التأديب والتزكية والرعاية، ولذلك مثل فى المحسوسات، فإن أنْفَس المعادن وأصفى الجوهر فى حاجة إلى تطهيرها وتجريدها، ثم إلى من يصوغها حتى تبلغ درجة الكمال التى أُهِّلت لها، فقد تكون زينة فى تاج الملك، أو حُلياً للغانيات، أو نقوداً يحصل بها تبادل المنافع بين الناس، فكذلك تلك النفوس، لا يمكن أن تكون زينة وجمالاً، تبلغ الدرجة التى أُهِّلت لها إلا بالتزكية والتأديب والتربية، ولما كان هذا الكمال النفسانى هو الوصول إلى الله تعالى، والفوز بفضله العظيم فى دار كرامته مع رسله الكرام، وأهل محبته من الصديقين والشهداء والصالحين، لزم أن تكون التزكية والتربية والتأديب منه سبحانه وتعالى لنا، لأن كمالنا بالوصول إليه سبحانه وتعالى، وباتصالنا به جل جلاله، ولا وصول إليه إلا بما هو منه تقدست ذاته، وما هو منه سبحانه محصور فيما جاء به رسول الله ﷺ، إذاً فلا كمال للنفوس إلا بالمسارعة إلى ما يحبه الله سبحانه وتعالى، وما يحبه الله تعالى هو ما جاءنا به رسول الله ﷺ من عند الله تعالى، عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقاً، فإذا سارعت النفس إلى طاعة رسول الله ﷺ، وحرصت على اتباعه ﷺ حكمنا والحكم لله الواحد القهار أن تلك النفس هى من الجواهر النفيسة، سبقت الحسنى لها من الله تعالى.

العالم أجمع ينافس فى تحصيل الخير

فإن العالم أجمع من النباتات والحيوانات والأُناسى ينافس فى تحصيل الخير، فترى الأشجار الكبيرة تأكل غذاء الأشجار الصغيرة فتضعفها، وتحجب الشمس عن النباتات الصغيرة فتميتها، منافسة فى الخير، وترى الحيوانات فى حرب عوان منافسة فى الحياة بحسب رتبتها، وترى الإنسان كذلك ينافس فى هذا الخير بحسب علمه، وأهل الدرجات العُلى من بنى الإنسان تحققوا أن تلك الدار الدنيا سفر وارتحال، لا دار مقام وآمال، فتقللوا منها، وسارعوا بالكلية إلى دار القرار، دار البقاء، دار النعيم الأبدى، وعملوا لنيل رضا الله، والفوز بجوار رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فى دار كرامة الله، ولا سبيل إلى نيل تلك الخيرات إلا بعلم مقدار الدنيا، ووضعها فى المنزلة التى تليق بها من القلب، حتى لا تستغرق كلية القلب، ليتفرغ لمقلبه جل جلاله، ومن كان كذلك قلت منافسته فى الفانى، وسارع إلى نيل ما يبقى له عند مفارقته هذا الكون، ولا يفرغ قلبه إلا بالتخلق بالأخلاق الجميلة، التى تجعله يتلذذ بالآلام فى طاعة الله، ويفرح بالتعب فى مساعدة إخوانه، ويحب لإخوته ما يحبه لنفسه، ويخلص النصيحة لجماعة المسلمين، ويحرص على نيل الخير للخلق أجمعين. كل تلك الأخلاق، لا يمكن أن يحصلها الإنسان إلا باتباع رسول الله ﷺ، ولا يمكن ذلك إلا بتحصيل العلم النافع الذى يتصور به ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه حتى يتشبه بأئمة الهدى، فيكون منهم بالمجاهدة أو يكون معهم بالمشابهة.

النفوس الكثيفة

وهناك نفوس دون تلك النفوس، لم تستعد لهذا الفيض المقدس، فهى أشبه بنفوس الأنعام السائمة، تدعوها ضرورة الجوع إلى تحصيل القوت، وضرورة الحر والبرد إلى الثياب، وضرورة الراحة إلى المسكن وبواعث الشهوة إلى الزوجة. تتفاوت تلك النفوس بقدر تفاوت نفوس الحيوانات، فمنها النفوس السبعية جرأة وانتقاماً؛ ومنها النفوس الثعلبية تملقاً وخديعة، وتلك النفوس لا تستقيم بالقرآن ولا بالسنة إلا بسوط التحذير أو بسيف الحدود الشرعية، ولولا ذلك لما انتظم العمران، وتلك النفوس لا تخاف الله ولا وعيده، فإنها إذا

تمكنت فى خلوة أفسدت وأضرت، ولكنها إذا أراد الله لها الخير، قدر لها الوجود مع أهل التقوى والهدى، وأحوجها إليهم فقهرها الاحتياج إلى التشبه بهم، وبطول صحبتهم تصير الكمالات عادة لهم، فتحصل لهم السعادة. فكل من أراد السعادة مع أولياء الله الأطهار، يجب أن يتباعد بالكلية عن صحبة الأشرار، ومجالسة أهل الغفلة المُنكبين بكليتهم على ملاذ الحياة الفانية، وتحصيل ما ييسرها لهم من المال والجاه والتقرب من الأمراء والوزراء، فإن أمثال هؤلاء تنحط هممهم إلى أن تكون أدنى من الثعالب وأسفل من النباتات المتسلقة، فتنمسخ حقيقتهم عند العلماء الربانيين، ويكونون من البهائم الراتعة لأنهم أهملوا تكميل أنفسهم بالعلوم، وتكميل أبدانهم بالعبادة والأعمال المفيدة، وأضاعوا أعمارهم فى معرفة غَنى يخدعونه أو ذى سلطان يتملقون له، فتفسد أخلاقهم وتحتوشهم الشياطين فيتصلون بها ويتلقون عنها، فتكون عقائدهم فاسدة وأخلاقهم سيئة وأعمالهم قبيحة، فيعيشون فى تلك الدار عيشة الكلب فى زمان طاعون البقر، فإذا فارقوا الدنيا، وتحققوا أنهم أضاعوا التحصيل وأوقات العمل فى لذة ينالونها، أو شهوة يسارعون إليها ندموا، ولات حين مندم، وكم من مستعمل الدين آلة لجلب الدنيا، ومن متجمل للخلق ليخدعهم، فيفسد عليهم العرض والدين، ومن أهمل تكميل نفسه ونسى لقاء ربه، فهو لا شك عدو لنفسه لأنه أوردها موارد الهلاك، وعدو نفسه لا يكون حبيباً لغيره.

بين أمارتى وروحى العلية ... برزخ يحجب المعانى الجلية
حيث أمارتى إلى السفل تهوى ... بيد روحى ترقى إلى الأولية
أيها الروح كنت نوراً مضيئاً ... ما لنفسى تدعو لسلب المزية
قالت الروح إن نفسى براقٌ ... يشهد الروح ما يرى فى البرية
فى المبانى آيات مجد وغيب ... لو تراءى لنلت خير عطية
تلك أمارتى بها قد تراءى ... لى بها الغيب فى صوى معنوية
كيف أرقى إلى شهود حبيبى ... إذ أنا جوهر ودارى قصية
جاهد النفس فهى كنز المعانى ... كى تريك الآيات فيها جلية

قبل نفسى قد كنت فطرة نوع ... بعد نفسى لاحت معان خفية
بالجهاد ارتقيت عالين حتى ... نلت قرباً فى حظوة واحدية
حكمة الله جمع ضدين أجلى ... لى معانٍ تلوح لى قدسية
من أنا قبل وصل روحى بنفسى ... روح عالٍ أو صورة مرويه
باتصالى بالنفس واجهنى الله ... اصطفانى بحظوةٍ مرضية
فطرة كنت لا أنال رقيى ... صرت بالنفس فى مقام المعية
جاهد النفس تجلى نور التجلى ... تشهد الروح فى الصفا الصمدية
وى ونفسى أمارة غير أنى ... فى جهادى نفسى أرى الأبدية

الأمة بأخلاق أفرادها

وهنا يجب أن نحكم حكماً لازماً، أن العائلة بأخلاق أفرادها، فإذا نهجت العائلة منهج التقوى والاستقامة، وتجملت بفضائل الأخلاق سادت ونمت، وسعدت فى الدنيا والآخرة، وكذلك الأمة، متى كثر فيها أهل الصفا، بل وعُظِّم فيها العالمون العاملون، واحْتُقر فيها الجهلاء المخالفون، عرف كل فرد منها قدر نفسه، وما يجب عليه لغيره، فسارع كل واحد منهم لخير الأمة، معتقداً أن سعادة الأمة سعادة له، واهتم بشأن المجتمع أكثر مما يهتم بشأن ذاته، إلا بقدر الضرورة، وإذا اهتم كل فرد لخير الأمة، عم الخير جميع الأفراد، ولا خير أنفع ولا أدوم من الخير الذى تناله الأمة بسبب التشبه برسول الله ﷺ والاقتداء به، والسير على نهج السلف الصالح، الذى به دان العالم أجمع، وكيف يرضى المسلم أن يكون ذليلاً، ويمكنه أن يكون عزيزاً أو تابعاً، ويمكنه أن يكون متبوعاً؟ أو يرضى أن يعمل بغير كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، أو يعامل بغير كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، واعتقاده أن ذلك هو الحق، وأنه السعادة فى الدنيا والآخرة، إذاً لا يرضى بذلك من كملت نفسه بالعلم، وكمل جسمه بالسمع والطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ الأنفال ٤٦، وقال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران ١٠٣، وقال ﷺ: (بعثت لأتمم

مكارم الأخلاق). وإن أكمل معلم للإنسان ما يراه بحسه، فإنه يرى أشياء كثيرة يكرهها من غيره، فالواجب عليه أن يتركها، ويرى أشياء كثيرة يحبها من غيره، فيجب عليه أن يسارع إليها، ومن كره من غيره عملاً وعمله فهو أحمق، ومن أحب عملاً من غيره وتركه فهو شقي. وفي المثل: (وكونك إياه عليك يسير). ومن قهرته نفسه على فعل القبائح وصعبت عليه المكارم، فليقهرها بالمجاهدة خوفاً من الوقوع في جهنم، قال رسول الله ﷺ: (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم).

وقال البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وليس بإنسان من اشتاق إلى الرذائل، أو مالت نفسه فعمل بها وصحب أهلها، فإن المعاشرة مجانسة، وقد تقهرها الرذائل فتقودها للشهوة، والشهوة تدعو إلى الفساد والفحشاء والعذاب الأليم، فتقهر النفس، وليس بين الجنة والنار إلا كبح جماح النفس أو إهمالها، وإلا فكل النفوس تميل إلى الرذائل لجهلها، ومعارج الرقى جلية أمام السالك، قال ﷺ: (الحلال بين والحرام بين) وإن الحيوانات لتعرف الحلال والحرام، فإذا علمت أمراً قبيحاً فرت من البيت على الجدران. انظر إلى القط إذا أخذ قطعة لحم من غير أن تعطيها له، فرَّ على الجدران، وإذا أعطيته بنفسك، أكلها بين يديك آمناً، فكيف يعرف القط الحسن من القبيح، ولا يعرفه الإنسان؟!

رقي الإنسان

إنما يرقى الإنسان بأخلاقه التي يكون بها شبيهاً بالملأ الأعلى، وبذلك يكون فوقهم قدراً عند الله تعالى، لأن الملائكة مجردون من مقتضيات النزوع إلى ما يخالف الحق جل جلاله، فهم طهر، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والإنسان مغشى بسياج من العناصر المتضادة، المقتضية للميول إلى أسفل سافلين، فإذا تفضل الله عليه بالأخلاق الجميلة، التي بها ينفذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان الخشية من الله تعالى، كان من

أكمل المجاهدين فى الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩، وقال ﷺ: (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالساً يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أحاسنكم أخلاقاً،الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون). هذا وإن الإنسان ليبلغ بأخلاقه مبلغاً يكون به عزيزاً فى ذُلِّهِ، غنياً فى فقره، عظيماً فى ضعته، يهابه ملوك الأرض، وما أوتى إنسان خيراً من خلق حسن.

قال الشاعر:

كم سيد بطل آباؤه نجب كانوا الرؤوس فأمسى بعدهم ذنبا
مقرف خامل الآباء ذى أدب نال المعالى بالآداب والرتبا

تم بحمد الله

الفهرس

الباب الأول

تزكية النفوس ٥

معرفة النفس ٥

النفس النورانية والنفس الشريرة ٥

تفاوت النفوس ٥

لم يسخر الله الملك والملكوت للإنسان؟ ٧

الإيمان كتبه الله وزينه فى القلوب ٨

أبدال رسول الله ﷺ هم ورثته ١٠

الباب الثانى

التهـذيب ١٣

حقيقـة التهذيب ١٣

حكمـة التهذيب على يد المرشد ١٣

الفرق بين أهل السلوك والتمكين فى إظهار أحوالهم ١٤

التهذيب فى طريق آل العزائم ١٥

الملامتى المخلص فى طريق آل العزائم ١٥

الذاتى مـن الملامتية فى طريق آل العزائم ١٥

خدع أهل الضلال ١٧

حـقيقة الحال ٢٠

هذه أحوال أهل العزائم ٢١

الباب الثالث

مآخذ تزكية النفوس ٢٢

الحس مصدر الأمراض النفسية ٢٢

الإنسان قد يفقد حسه وهو حى ٢٢

مجاهدة الحس عند السالكين ٢٣

الحس قد يقوى سلطانه على السالكين ٢٣

شتان بين تزكية النفوس عند أهل الإيمان وغيرهم ٢٤

الفرد المسلم هو المجتمع..... ٢٤

وسائل تزكية النفس..... ٢٥

طرق تزكية النفس ٢٥

الفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ٢٥

علم الدنيا وسيلة لعلم الآخرة ٢٦

استعمال علم الدنيا فى غير ما ترجم له ٢٧

حقيقة التزكية ٢٩

أمراض النفوس وعلاجها ٣٠

أمراض العلماء ٣٠

من أمراض الخفا للعلماء الربانيين ٣٢

من الأمراض الظاهرة لعلماء الدنيا الجهلاء بالآخرة ٣٥

الباب الرابع

النفس الزكية والإيمان والعصمة ٣٨

رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها ٣٨

النفس الزكية تقبل المأمور وتترك المنهى عنه ٣٨

لكل جواد كبوة ٣٩
آثار خليقة الإنسان المزدوجة ٤٠
حكمة فتح مصاريع التوبة على كثرة العثار ٤١
رباط العاصى بالإيمان واه ٤٢
الإيمان فى العاصى باقٍ إلا إذا ٤٢

الباب الخامس

تربية النفس قبل الدرس ٤٣
الإنسان يختلف عن الإنسان بحسب النفوس ٤٣
جواهر النفوس ٤٤
الرجوع إلى الحق وأهله ٤٥
تزكية النفوس ٤٦
وسائل تزكية النفوس ٤٧
سعادة الأمة بمن زكت نفوسهم ٤٧
العلم والمال ٤٩
العلم يكشف جوهر النفس ٤٩
أخلاق العلماء ٥٠

الباب السادس

الإرادة والعمل والخُلُق والتخلق والأخلاق ٥٣
الإرادة والعمل ٥٣
وسائل الإرادة ٥٤
كيف ينال المقصد؟ ٥٤
طريق نيل الأمة مرادها ٥٤

الخُلُق والتخلق ٥٥
الخُلق ٥٦
تزكية النفس ٥٦
التخلق ٥٧
الأخلاق ٥٨

الباب السابع

طرق السلامة من عداوة النفس ٦٠
أعدى الأعداء هى النفس ٦٠
من هو أحب الناس إلينا؟ ٦٠
بيان أعمال النفس ٦١
البطن واللسان والذكر ٦١
عداوة البطن ٦٢
عداوة اللسان ٦٣
آثار اللسان ٦٤
عداوة الذكر ٦٤

الباب الثامن

المكارم والعافية والقوت والأمن ٦٧
أقسام المكارم ٦٧
عناية الإنسان بالعافية والقوت والأمن ٦٩
حكمة خلق الله للإنسان ٦٩
حفظ العافية والعمل لجلب القوت والأمن عبادة ٧١
نتائج الأخلاق ٧٢

الباب التاسع

الطريق عند الرجال ٧٣

الطريق ومآخذه ٧٣

بداية الطريق ٧٣

من عرف نفسه عرف ربه ٧٤

معرفة النفس وتربيتها أصل النجاة ٧٥

صفاء النفس ٧٦

السياسة مرض فى النفوس ٧٧

الباب العاشر

الأخلاق ٧٨

النفوس النورانية ٧٨

النفوس النورانية فى حاجة إلى التأديب والتزكية والرعاية ٧٩

العالم أجمع ينافس فى تحصيل الخير ٨٠

النفوس الكثيفة ٨٠

الأمة بأخلاق أفرادها ٨٢

رقى الإنسان ٨٣

الفهرس ٨٥

almashahed
www.almashahed.com